

المجموعة التاريخية
تخرجى كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

صَوَرٌ مِنَ النَّاحِ الْإِسْلَامِيَّةِ العصر العزى

تأليف

عبد الحميد بكى العبادى

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول
أستاذ التاريخ الإسلامى

مكتبة الآداب للطباعة والنشر ٢٢ شارع محرم بك

الاسكندرية ١٩٤٨

obeykandi.com

الإهداء

إلى إخواني وتلاميذي من خريجي مدرسة القضاء الشرعي ، ودار العلوم ،
وكلتي الآداب بجامعة فؤاد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار
المعلمين العالية ببغداد ، أهدي الكلمات التي يشتمل عليها هذا الكتاب ، فهي
ثمرة دروس وبحوث ألقيتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها
أكبر باعث لي على أن أستخلص منها هذه الكلمات التي نشرتها من قبل
مفرقة في الصحف والمجلات ، والتي أعيد نشرها اليوم في كتاب ؟

عبد الحميد العبادي

رمل الاسكندرية في (٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٧)
(٢٠ يناير سنة ١٩٤٨)

كلية الجمعية التاريخية

لخريجي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعيتنا التاريخية^(١)، وهو كتاب نعتز به كل الاعتزاز، لا لأنه كتاب رئيس الجمعية، بل لأنه كتاب علم من «المثاني» بين كتب التاريخ. وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تتسابق في الانفراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته فقد رت ذوقه التاريخي تقديرا لم يبلغه فيما نرى أحدا من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث.

ولاستاذنا عبد الحميد العبادي بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حق المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عاما أو تزيد. فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة، فظلت تحتفظ بأجمل الذكرى لما سمعت، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسما بسيطا ونقشا حيا، حتى لم يجدوا عناء في حملها كأنما صاغها من نفوسهم. بل قد لا نجاوز الحق في شيء إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسا لدراسته الإسلامية. ولقد سمعت دروسه تلميذا ثم سمعت شيئا منها زميلا، فخيّل إلى أنني كنت أشد إعجابا بها وأعظم طربا لها حين أصبحت زميلا مني حين كنت تلميذا. ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يذعه الأستاذ الجليل على الناس بعد.

نعم، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الإسلامي كبير الأثر، لأنه نقله من

(١) الكتاب الأول، الجبل في تاريخ لوبيا، تأليف مصطفى بعيو الطراباسي، ١٩٤٧.

عده الأول إلى عهد جديد : كان التاريخ الإسلامى لا يزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم النقلية الصرفة . فكان المؤرخون فى الغرب الأوربى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تمحيص الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما تتيح لهم طرائقهم الرفيعة فى التحييص ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كوسان دى برسفال ودفرميرى وغيرهما فى فرنسا وموير فى إنجلترا وفایل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الشرقيون أنفسهم ، فمنهم من كان يعتمد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إيجازه قصر وطولا ، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ومنهم محمد الخضرى بك ، بل لعل الخضرى كان يغالى فى الطريقة القديمة حتى ليحتفظ لرواياته بألفاظها القديم . وكتابه لهذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب نصوص ، ولانزال إلى اليوم ننصح المبتدئين فى التاريخ بقراءته ليتعودوا لأساليب المصادر . حتى أنشئت الجامعة المصرية القديمة وأنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أساتذتنا أصحاب المنهج العلمى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحميد العبادى بك فى التاريخ .

فمهر التاريخ الإسلامى طريقه القديم الذى سلكه قرونا طويلة ، وسائر باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوربا . وتجاوز الدور البسيط الذى مرت به كل الشعوب تقريبا ، ثم لم يقنع بالتقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على بدى جيبون وفولتير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكد يغير إلا مظهره بما أدخل عليه من تنظيم الوقعات وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لنقرأ المختارات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قطعاً رائعة من الأدب الخطيبى

الرفيع ، تحدث في النفس أروع الأثر . ولسكنها على ما تقتسر من الروعة قليلة
الحظ من الصفة التاريخية الصحيحة ، وخاصة حين تغلب عليها النزعة الغنائية .
ونمثل هذا الانتقال في آثار الأستاذ الجليل . فإذا الأستاذ يقفز بالتاريخ
الإسلامي في مصر قفزة العملاق ، وإذا به يتبع آثار جيمون ويورى وغيرهم
من عظماء المؤرخين ويعالج التاريخ الإسلامي كما يعالجه كبار المؤرخين المعاصرين
في أوروبا بالقياس إلى فروع التاريخ الأخرى .

فالأستاذ الجليل طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته : فإنه يجمع إلى قوة
النقد وطرافة الاستنباط فطرة سايمة تجبسه على السعى إلى فهم كل شيء . ثم
أسلوب أدبي رزين يعارض به الأساليب القديمة أحيانا ويبلغ به حد الإجادة
لا عن طريق الأسلوب وحده ولسكن عن طريق الرسم السهل الممتنع خاصة .
ومن وراء كل هذا أساس تاريخي عتيد مبنى على قراءات واسعة مستفيضة وافرة
الحظ من الإجادة والإتقان ، أعانته عليها ذوقه الأدبي الممتاز ، فهو يحفظ بعضها
عن ظهر قلب ويشتمل بعضها تمثيلا حيا . ولسكن الأستاذ حريص دائما على أن
لا يشغل بها القارىء ، وأن لا يثقل بها سرده التاريخي القوى البناء . ثم هو
من أكثر المؤرخين حرصا على تجنب التفاصيل التي تملأ الصورة التاريخية أحيانا
فتذهب برونقها ووضوحها ، وهو من أوسعهم نظرا أيضا : فلا يكاد ينتهى من
تصوير الواقعة الخاصة حتى يضعها في إطارها من التاريخ العام وضعا لا تنبوعه .
ولهذا كان مجيدا في صورته التاريخية . فهي أشبه شيء بالتخطيط القوى في دلالة .
ولهذا كان عبد الحميد العبادى بك مؤرخا فنانا فذا صاحب طريقة خاصة ،
فاستطاع أن يجمع بين الأدب وبين التاريخ في آن واحد . له من التاريخ منهجه
العلمي الدقيق ، وله من الأدب جمال الصورة وروعها . فإن صح هذا الوصف

لطريقته فهو يعالج نوعين من العلم في نوع واحد ، ويلقى على نفسه هملاً كان
حريراً أن يثقله لولا أن ملكاته الوافرة تعينه عليه وتقدره على حمل لوائه ،
وترفعه إلى منزلة جليلة .

وفي هذا الكتاب نوع خاص من أبحاثه : هو صور من التاريخ الإسلامى
بعضها يدخل في باب التراجم فيقفز بهذا الباب إلى مستوى رفيع ، وإلى فن لم يفتن
إليه الأقدمون على كثرة تأليفهم فيه ، وبعضها إحياء رائع للأجواء التى كانت
مواطن الإسلام الأولى مثل دار الندوة أو دار الأرقم الخزومى . وهو نوع
من البحث تظهر فيه مواهب الأستاذ ظهوراً يغنيها عن وصفها والإدلال على
محاسنها . فهى غنية بذاتها عن الوصف والثناء . وما أردنا إلا أن نبين طريقة
المؤلف الجليل ومنهجه التاريخى الدقيق المحكم . وقد كان من حقه علينا أن نشيد
بآثاره ، لولا أن فى الثناء وقوعاً فى الحرج ووضعاً لأنفسنا فوق موضعها .
ولنسجل فى آخر هذه الكلمة شكرنا لأستاذنا على استجابة رجائنا ، وإذنه
فى نشر هذه المقالات التاريخية القيمة ؟

عن الجمعية التاريخية

محمد عبد الرهمن سمره

الاسكندرية فى } ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
} ٢١ يناير سنة ١٩٤٨

دروس من الصحراء

لقد أسعدني الحظ فسافرت في الصحاري وسلكت طرقها ومسالكها غير مرة .

تجولت في صحراء مصر الغربية وتنقلت بين واحاتها العتيقة المتقادمة. وضربت في صحراء مصر الشرقية مرتاداً شعابها وأوديتها وشم جبالها . وسلكت من جزيرة العرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جرت بادية الشام وعبرت البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق . وأشهد لقد علمتني هذه الأسفار من أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفتني من أسرارها ومكنون أمرها على ما لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جهدت .

لقد كنا عند اعتزام السفر في الصحراء نأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ ، ونستعد له أتم الاستعداد ، تفادياً مما عسى أن يفجأنا في سفرنا من نفاد الزاد أو الماء أو العتاد ، وكنا في ذلك إنما نعول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضي بنا إلى الهلاك المحقق وليس من شك في أن التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك أمرها ، وهذا أول درس تلقيه الصحراء على من يغامر بنفسه في مجاهلها .

ولكننا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا في التوقي والاعتماد على

النفس كنا لا نبرح يخالجننا شعور قوى خفى بأننا على شفا أمر مخوف ، وغيب مجهول ، وأننا ضاربون فى عماية لا نأمن بغتاتها وفجائاتها ، فن يدرى ! فلعلنا لخلل فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، نمسى وقد انطوت علينا الصحراء انطواء اليم الخضم على من انخرقت به سفينته ، فإذا أجسادنا جزر سباعها وعقبانها ومدب حشراتنا وهوامها .

من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على أنفسنا ، مسندين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ، وهذا درس آخر بليغ يستفيدة المسافر فى الصحراء .

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . وحذار أن تخدعك عن روعتها وجمالها رمالها الوعشاء ، وجمالها الجرداء ، وحرها اللافح ، وبردها القارس ، فما تلك لعمر ك إلا بمنزلة أطمار على أقمار ، وأسما على حسناء معطال . ورويدك حتى يقبل الربيع ، ويرق الهواء ، وتضع الأرض جمالها ، فترى عجباً من العجب ، فى الزهر المفوف ، والعشب المخضر ، والطيور الصادحة والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاء الثاغية ، والقوم يتصايحون جذلاً وحبوراً .

ورويدك حتى يقبل المساء ، ويطلع القمر ، وتتألا النجوم والسكواكب ، ويخيم على الصحراء سكون يكاد لرهبة يحسه سمعك المرفف ، فترى ضالة غير متناهية إزاء عظمة غير متناهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على البداء رواقه ، وطرق سمعك عصف الرياح وهى تنسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيقة ،

وترأت لعينيك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عن ياف
الجن وصراخ السعال ، وأنت تراها وتحسها ، وأنها تراوئك تارة عن يمينك
وأخرى عن شمالك ، فلا ترع ، فجن الصحراء وسعالها ليس الخبث والغدر من
طبعها ، وقد عرفها قداماء العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون
وشئون ، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونها أو تصرعونهم ، وتارة كانوا يحبونها
وتحبهم ، ويصهرون إليها فتلد لهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها
ويحالفونها فتفي لهم ويفنون لها ، وطورا كان يستلمها شعراؤهم فتلمهم عيون
الشعر وروائع القوافي . فهل تدري ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى
معنى الفن الرفيع والعبقرية والجمال .

الصحراء تبعث في نفوس أهلها وعشاقها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق ،
والعبقرية التامة . فإن شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال العرب في الجاهلية
والإسلام ، فإن أبيت إلا الطريق السهل ، والقول الفصل ، والحجة البالغة ، المعجزة
الدامغة : فعليك بسيرة نبي الهجرة عليه السلام ؟



« مصر القديمة » وآثارها ^(١)

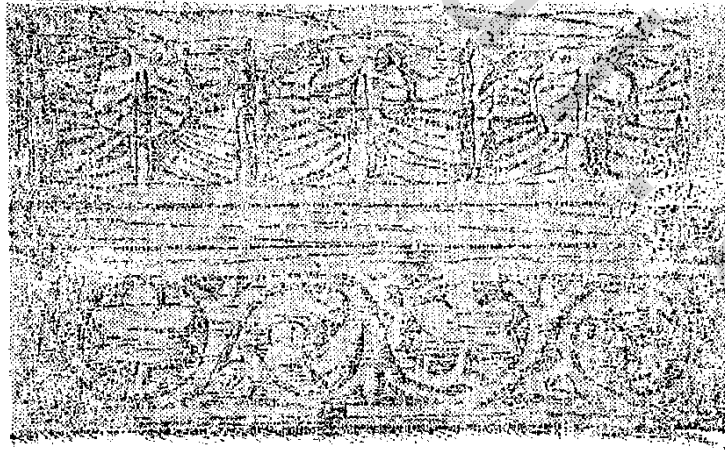
مصر القديمة حتى من أحياء العاصمة ، له من انفراده جنوبيا ، ومن صبغته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق في المصرية ، ترى فيه المسلم إلى جانب القبطي في المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخي الإسلامي قريبا من الأثر التاريخي القبطي . ثم لا تجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادي واضحا ولا عنصرهم مائلا مشولا في أحياء العاصمة الأخرى . والحى هادى ساكن ، قد خلج عليه القديم ثوبا ضافيا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يكاد يهيجهم حزن أو يستخفهم فرح ، كأنهم لطول ما تتابع على حبيهم من غير الدهر وصروفه قد رسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء من الاطمئنان الفلسفي غير قليل .

« ومصر القديمة ، على ضيق رقعتها وتقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لاتزال ماثلات شواهد بكثير من حوادث التاريخ العظام . فإذا بكرت مرة أيها القارىء إلى مصر القديمة ، ووقفت فى هدأة الصبح وحين اذكرك القلب ونشاط الذاكرة حيا « حصن بابليون » أو وسط « الجامع العتيق » أو بين خرائب « القسطايط » فقد تؤدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصرى .

فهذا الحصن الذى تستنقذه الآن مصلحة الآثار من أيدي البلى يذكرك

(١) السطور ٦ العدد ١٨٢ ، ١٢ ديسمبر ١٩١٨ .

بقيام دولة فى هذه البلاد على أطلال دولة تأذن الله بانحلالها وذهاب ريجها .
وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العربية الأولى قد يخفى على من يقرأ
التاريخ عجلان غير متنبئت . وتنطق بين يديك خرائب الفسطاط بما قاسته
الفسطاط من نيران « شاور بن مجير السعدى » وزير « العاضد لدين الله » الفاطمى
وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أثرا بعد عين .
فإذا تركت أيها القارىء تلك الآثار ، وأخذت فى سيرك ذات اليسار ، وجدت
النيل لم يبرح كما كان أيام الفراعنة والفرس والبطلمة والرومان والعرب والترك ،
يتدفق تدفق الزمن هيناً ليناً حثيثاً مطرداً ، لا يعبأ بما يتعاقب على عذوبته من
الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القسائمة على
جانبيه القوة الزائلة الفانية .



دار الندوة^(١)

كان العربي القديم ، ديموقراطيا بطبعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجماعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين جاءها الهدى بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، « قالت يا أيها الملائى القى الى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتوني مسلمين . قالت يا أيها الملائى أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » ، وحل الشاهد هنا استشارة بلقيس للملائى من قومها ، وقولها إنها لا تقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملائى عليها . وقد فسر « الملائى » بأنه الرؤساء لأنهم ملاء بما يحتاج إليه ، وبالجماعة ، وأشرف القوم ووجوههم ومقدميهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجايز صلحاء ، فقال عليه السلام « أولئك الملائى من قريش ، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعالك » ، ومن معانى « الملائى » « المشاورة » .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكان هذا عن ملاء منكم ؟ » ، أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكانهم لحظوا فى أشراف القوم صفة تلزمهم وهى حسن الخلق فجعلوا من معانى « الملائى » حسن الخلق وأنشدوا :

(١) حديث بالراديو فى ١٨-١-١٩٤٥ .

تسادوا يا لبهشة إذ رأونا فقلنا أحسنى ملاً جهيننا
 أى أحسنى أخلاقاً يا جهينة أو أحسنى الممالة والمعاونة ، ومنه قول النبي
 ﷺ لبعض أصحابه وقد ضربوا أعرايباً بال في المسجد : « أحسنوا أملاءكم » أى
 أخلاقكم فالأملاء معناه أشراف القوم والجماعة والمشاورة ، كما يفيد أحاسن
 الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند اليمن القدماء قد صدقته
 الكتابات اليمنية القديمة التى عثر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ
 اليمن القديم ، فالخبر صحيح من ناحيتى الأثر السماوى والتاريخ البشرى .

ولا يقل عرب البوادرى عن عرب الحواضر من حيث الروح الديموقراطية ،
 فكان سيد القبيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخاباً طبيعياً ، على معنى أنه
 يصبح بالفعل سيد القبيلة إذا فاق أفرادها فى الفضائل التى تأتى عادة من قبل
 الطبع لا التطبع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما
 لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى
 الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القبيلة منصباً وراثياً إلا فى النادر ، وإلى ذلك
 يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية بقوله :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب
 فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأب ولا أب
 وإكنى أحمى حماتها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكى
 وليس سيد القبيلة بالحاكم المستبد بقبيلته ، وإنما هو خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور « سيد القوم خادهم » ، ويحد من سلطانه مجلس القبيلة الذي يتألف من أشرف القبيلة وذوى المكانة والرأى والسن فيها ، يجتمعون للتشاور فى شئون القبيلة وليدوا سيدها بالرأى ، إذا حزب أمر أو ألم خطب .

لم يصل إلينا مع الأسف شىء يذكر من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القبلية كما يصح أن نسميها ، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لاتدون أخبارها . ومع ذلك فى الشعر الجاهلى ما يلقى ضوءا على حقيقة هذه المجالس . ومن ذلك قول مهمل فى رثاء أخيه كليب : -

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا فى أمر كل عزيمة لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

* * *

وأشهر المجالس القبلية عند العرب قبل الاسلام المجلس الذى كان لقريش بمكة ، وكان يعرف بدار الندوة .

كانت هذه الدار فيما يروون دار قصى بن كلاب الذى جمع بطون قريش وأنزلها مكة ، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وكانت الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشمالية من الكعبة . وكانت فسيحة وسبعة ، وفيها كانت قريش تقضى فى شئونها العامة :

- (١) فى دار الندوة كانت تعقد قريش لوائها إذا خرجت للحرب .
- (٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة ، وفى فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت .

- (٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذر (أى ختن) فيها .

(٤) وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أي قميصها) ، ثم درعها إياه ، ثم انقلب بها أهلها فحجبوها ، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش من الذكور والإناث .

(٥) علي أن أهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش ، فيها يجتمع ماؤها للتشاور في أمورها ، وه الندوة ، الاجتماع والجماعة . ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة ، في حين كان يدخلها بنو قصي وحلفاؤهم جميعا .

ولدينا نص عربي قديم يصحح أن نعتبره مثالا لنوع المناقشات البرلمانية التي كانت تجرى في دار الندوة ، إذا حزب قريشا أمر أو ألم بها خطب . يصف هذا النص اجتماع قريش في دار الندوة وحوارها عندما أرادت الحيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة . وما انتهى إليه رأيها في ذلك . قال المؤرخ العربي القديم محمد بن اسحق : « فاجتمعوا في دار الندوة ... يتشاورون فيما يصنعون . واتعدوا يوما يجتمعون فيه ، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة في ذلك اليوم) ، في هيئة شيخ جليل عليه بت له . فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح . قالوا أجل ! فادخل ! فدخل معهم » . ثم يسرد المؤرخ أسماء من

حضر في ذلك اليوم من أشرف قریش فيقول « وقد اجتمع فيها أشرف قریش
كلهم من كل قبيلة : من بني عبد شمس شيبه وعتبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن حرب ،
ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن
عاصم بن نوفل ، ومن بني عبد الدار ، النضر بن الحارث . ومن بني أسد ، أبو
البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بني مخزوم ،
أبو جهل بن هشام . ومن بني سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن بني جمح
أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قریش . ثم يمضي
ابن اسحق في تصوير ما حدث فيقول : « قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد
كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد
اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ! قال فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : احبسوه في
الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله
زهيرا والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم !
فقال الشيخ النجدي « لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما تقولون
لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا
عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم
برأى فانظروا في غيره ، !

ثم تشاوروا ، فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج
عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، غاب عنا أذاه ، وفرغنا منه
فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . .

فيقول الشيخ النجدي « والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

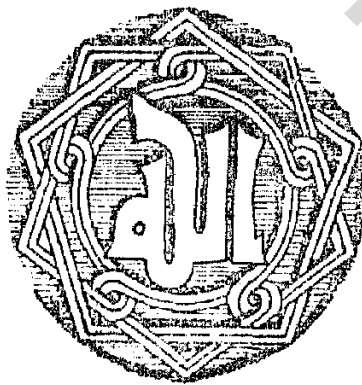
منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتسابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ! أديروا فيه رأيا غير هذا ،

قال فقال أبو جهل بن هشام : « والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعدا قالوا : « وما هو يا أبا الحكم ؟ » ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتي شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتي منهم سيفنا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه فندستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منها بالعقل « اى بالدية » فعقلناه لهم . فيقول الشيخ النجدى : « القول ما قال الرجل ! هذا رأى ! لا رأى لكم غيره ! » فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . . ونحن نعلم أن ما دبرته قريش فى ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب . وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش وائتمارها بمحمد يشير القرآن الكريم بقوله « وإذا يمكركم الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » وبقوله أيضا « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها فى الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية . أما ما آل إليه أمرها بعد الإسلام فاليس يهمننا كثيرا ، ويكفى أن نقول إنها بدخول قريش فى الإسلام انتهى أمرها من حيث هى دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار الإمارة بمكة ، ثم أهمل أمرها ونشرب ، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسي أمر بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام . وبذلك اندرجت دار الندوة القرشبية الصغرى في دار الندوة الإسلامية الكبرى .

أما بعد ، فلعلنا نكون قد أوضحنا في هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا مشبعين بالروح الديمقراطية على اختلاف عصورهم وتنوع درجات تحضرهم ، ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطي فيما أقر من نظمهم وعاداتهم ، وأمر الله رسوله بالأخذ به ، فقال سبحانه وتعالى « وشاورهم في الأمر » ، وجعله من صفات المؤمنين في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » . ثم زاد سبحانه ههنا النظام تنويها بقدره وإعظاما لشأنه ، فأنزل سورة من سور القرآن أسمها « سورة الشورى » .



أحابيش قریش

هل كانوا عربا أو حبشا (*) ؟

يستعمل لفظ « الأحابيش » في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قریش تستأجرها قبيل الإسلام ، للدفاع عن بلدها وقوافلها التي كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألماني الكبير فلهاوزن ، فقال في كتابه الذي ألفه عن الوثنية العربية ^(١) هذه العبارة : Die politischen Verbundenen den Qurnisk sind die Ahabisch. ومعناها « الأحابيش أحلاف قریش السياسيون » .

ولسكن الأب لمانس المستشرق اليسوعي المعروف نشر في المجلة الآسيوية ^(٢) مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisation militaire de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواية اللغة العربية قد وهموا في تفسير هذا اللفظ ، وأن الأحابيش كانوا كلهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد

(*) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (مايو ١٩٣٣)

(١) Reste des Arabischen Heidentums. 86.

(٢) Journal Asiatique, VIII. 1916, 125-182

الحبشة ، وأن رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب ، أنفة من أن يقولوا إن قريشا كانت في الجاهلية تستعين السودان في الدفاع عن حوزتها^(١) .

ومع أن الأب لامانس قد أنفق جهدا عظيما في التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإنى أرى الموضوع لا يزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد في هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

(أولا) أن الأحابيش كانوا عربا .

(ثانيا) أن القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

(ثالثا) أن العميد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبها لم يكونوا من الأحابيش في شيء .

(١)

لا شك أن بين كاتى « حبش » و « أحابيش » تجانسا شديداً في اللفظ واتحاداً في المعنى من بعض الوجوه .

ولكن ثانی اللفظين ينفرد بهما . تعدل به في أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء في القاموس المحيط في مادة « حبش » : - الحباشة ككثامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحبوشة . وجاء في لسان العرب في المادة المذكورة :- والأحبوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أي كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحبيش التجمع وفي المجلس حباشات وهباشات ، أي ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا والحبشان الجراد الذى صار كالنمل

(١) Ibid, p. 457

أسوداداً . فالتفسير اللغوي يفيد أن لكلمة « الأحابيش » ثلاثة معان خاصة :
(١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتشأشب ،
ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحبش »
تفيد هذا المعنى في اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ،
لأن العرب تنعت الشيء إذا كثرت وتكاثفت بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوي يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة في بيان أصل
نظام الأحابيش . جاء في سيرة ابن هشام ما يأتي : قال ابن اسحق : والأحابيش
بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق
من خزاعة . قال ابن هشام : « تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا
بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »^(١) . ويقول صاحب معجم البلدان :-
« حبشي . . . جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحابيش قريش
وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خزيمه اجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ،
وتحالفوا بالله : إنا لبيد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار ، وما رسا
حبشي مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، وبينه وبين مكة ستة أميال .
مات عنده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فجأة ، « فحمل على رقاب الرجال إلى
مكة »^(٢) . وجاء في لسان العرب^(٣) : « وحبشي جبل بأسفل مكة ، يقال منه
سمي أحابيش قريش ، وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خزيمه اجتمعوا
عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : إنا لبيد واحدة على غيرنا ما سجا ليل

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتيجن : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) معجم البلدان - مادة حبشي .

(٣) لسان العرب - مادة حبش .

ووضح نهار ، وما أرسى حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، .
ولا بأس في هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوه وقلة
صحيحه ، شعر دون في القرن الثاني الهجري ويبين ما كان متعارفا إذ ذاك عن
الأحابيش . قال هبيرة بن وهب المخزومي يفتخر بيوم أحد :^(١)

سقمنا كنانة من أطراف ذي يمن عرض البلاد على ما كان يزجها
قالت كنانة أنى تذهبون بنا ؟ قلنسنا النخيل فأموها ومن فيها
فأجابه حسان بن ثابت فقال :-
سقم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول فجند الله مخزها
جمعتموهم أحابيشا بلا حسب أئمة الكفر أغرتكم طواغيتها
فهذه الأبيات صريحة في أن المراد بالأحابيش هو كنانة . وقال
حسان أيضا :

إذا عضل سيقت إلينا كأنها جداية شرك معاملات الحواجب
أقنناهم طعنا مبيرا منكلا وحزنناهم بالضرب من كل جانب
فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وعضل حتى من بنى الهون بن مدركة^(٢) ، فهي من الأحابيش . ومعنى البيت
الآخر أنه لو لا استقتال هذا الحى حول اللواء الذى رفعته يوم أحد تلك المرأة
الحارثية لوقعوا فى الأسر فبعناهم بالأسواق كما تباع العبيد المجلوبة . من هذه
النقول التاريخية نأخذ أن الأحابيش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنتمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

(٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له حبشى ، وتحالفت فسميت الأحابيش .

(٣) أنها حالفت قريشاً على التناصر والتآزر فلمدلول التاريخي لكلمة « الأحابيش » متمش مع مدلولها اللغوي ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومخالفتها قريشاً بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال في صحة النتيجة التي وصلنا إليها بهذه المقارنة : وهى أن الأحابيش عرب . والحق أنا بإزاء قبيلة عربية آخذة في التكون ، بواسطة الحلف الذى كان سبباً في تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجيء الإسلام وحياولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتنا « تنوخ »^(١) و « الرباب »^(٢).

(٢)

وجنسية الأحابيش العرب يؤكد لها تاريخ حلفهم الذى نرجح أنه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فإننا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية طامخة خصائص القبيلة ، من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تتنزل منها منزلة الخليف من الخليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش ، وإلى القارىء النصوص التى تؤيد ذلك :

(١) كان سيد الأحابيش فى السنوات الأولى من عهد النبوة رجلاً يقال له

(١) الطبرى - المجلد الأول ص ٧٤٦ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ .

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذي ناله من قريش لقيته ابن الدغنة فأجاره وورده إلى مكة . فلم تعرض قريش لأبي بكر بسوء ، احتراماً لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتن أبناءؤها ، فشكت أبا بكر إلى مجيره ، فما كان من أبي بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره (١) .

(٢) يقول الطبري في كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن زبان أخو بني الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبي سفيان وهو يضرب في شندق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عتق ! فقال الحليس : يا بني كنانة ! هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لهما . فقال : « ويحك اكتمها على فإنها كانت ذلة » (٢) .

(٣) ويحدث الطبري في خبر الحديبية عن ابن إسحق عن الزهري فيقول : « ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتأهلون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ ، إعظاماً لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش ! إني قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله » . قالوا له « اجلس ، فأما أنت رجل أعرابي لا علم لك . . . » ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال « يا معشر قريش ! والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) الطبري - طبعة ليون ، المجلد الأول ص ١٥٣٧ .

معظما له . والذي نفس الحليس بيده لتخلف بين محمد وبين ما جاء له ،
أو لأنقرن بالأحاييش نفرة رجل واحد .

فقالوا له : « مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به » (١)

(٤) يروى الطبري في خبر الحديبية أيضا عن ابن إسحق أن النبي دعا
خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمسكة ، وحملة على جمل له يقال
له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعتقوا به جمل رسول الله ، وأرادوا
قتله ، فمنعته الأحاييش ، نخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ (٢) .

وقد عرف الرسول كيف يفيل قوة الأحاييش التي كانت تعترض بها قريش .
وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معا . فأما السياسة فإنه
اجتنب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التي تنتمي إليها أحياء الأحاييش فكانت
خزاعة كما يروى ابن إسحق ، « مسلمهم ومشرکهم عيبة نصيح رسول الله ﷺ
بتهمته ، صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئا » (٣) . كما أن غفارا (٤) وهي من كنانة ،
وأسلم (٥) وهي من خزاعة ، أخذتا جانبه ؛ ووردت في الثناء عليهما أحاديث
عدة . فلما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت
في عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش . وأما العنف
ففتبينه في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت
شوكة الأحاييش كما يرى من موقفهم في صلح الحديبية .

(١) الطبري - المجلد الأول ص ١٥٤٢ .

(٢) الطبري - المجلد الأول ص ١٤١٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .

(٤) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٥) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

وفي يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قتالا
يسيرا (١) .

واستعانة أهل الحواضر بأهل البرادى كانت ظاهرة سياسية عامة في بلاد
العرب قبل الإسلام . فكما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس
والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب (٢) ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة
إلى ثقيف بالطائف (٣) . ولقد عاقب يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم
إذا هم حاربوا معهم النبي ﷺ (٤) .

(٣)

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تسكن من
الأحابيش فى شيء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مساوية الحقـسوق
العامة ، ومسخرة لأشراف مكة فى حال السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد
شرى بالمسال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحباز . . يقول
الأزرقى (٥) : « وأقام بمكة قلال من الحبش وعسقاء وبعض من ضمنه العسكر
يعتملون ويرعون لمكة ، . ويقول صاحب الأغاني (٦) . « وكان لعبد الله بن أبى
ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن
سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك فى حبش بنى المغيرة

(١) الطبرى - الجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٢) السمهودى : ج ١ ص ١٢٥ (طبع مصر) .

(٣) ابن الأثير : ج ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر) .

(٤) السمهودى : ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) أخبار مكة للأزرقى ص ٩٧ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٣٢ .

تستعين بهم؟^(١) فقال لا خير في الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا .
وإن فيهم خلقين حسنين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس . فلما ظهر الإسلام
بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فحس ذلك عليهم اضطهاد
أولياهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش .
من هذه الطبقة المغلوطة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن
فهيبة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصواب حامل لواء قريش في ذلك اليوم .
كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر
بعضهم من الرق .

وبما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحابيش قول الطبري في غزوة أحد^(٢) :
فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ،
وعطف عبدان على ما قبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح
وبيان كما يرى الأب لامانس^(٣) .

بهم — هذه التفرقة بين أحابيش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التي
أوردناها أن الأحابيش كانوا حلفاء قريش ، وقول صاحب لباب النقول^(٤) :
« واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحابيش » : فالمخالفة والاستئجار
إنما ينصبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ، سماه
ديوان الحبش . يقول المارردى^(٥) : وذلك لمكان بلال منهم ؟

(١) وذلك عند مسيره الى هوازن

(٢) الطبري المجلد الأول ص ١٣٩٩ .

(٤) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية (وضع الديوان)

دار الأرقم الخزومي

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا في الإسلام في السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي ، عليه السلام ، فإذا هم بضع وثلاثون نفساً ، جعلهم ممن كانت تصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة . ولقد يعلل بطء الدعوة في تلك السنين العجاف من حياة الإسلام بأن محمداً لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاصة قريش وعامتها . لقد كان أبداً معرض أذى وإعنات ، كما كان النفر الذين اتبعوه أبداً معرض فتنه واضطهاد .

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة في العام السادس للبعثة ، فإذا هم لا يتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذرائعهم . فيهم الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والهرج في نسب قريش والدخيل . لشدة ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات سمان ؛ ففي نحو سنتين اثنتين بلغ عدد من دخل في الإسلام مثلي من دخلوه من قبل ، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا ، على أقل تقدير ، على النصف من عدة الجماعة الإسلامية .

وليس من شك في أن تلك النقلة العجيبة راجعة إلى أن محمداً أصبح يجد في هاتين السنتين ، من حرية القول وهدوء السرب ما لم يكن يجده من قبل . ولقد وجد محمد الأمرين جميعاً في دار من دور مكة ، لم تنب به ، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعاً ، كما ضاق كثير غيره ، تلك هي دار أرقم بن أبي الأرقم الخزومي .

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقتوا الناس جميعاً إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم من نصيب للنبي العدواة ونفس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » بقولهم : أى على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومي ، أو من أهل الطوائف كعروة بن مسعود الثقفي . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركي قريش في وقعة أحد ، وبتيديره انكسر جيش محمد عليه السلام في تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومي إلى الإسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمنع صفوف أعدائه وألدها خهومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرًا وأحداً والخندق وسائر مشاهدته صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلاً ، فقد توفي عام ٥٥ هـ عن سن عالية جاوزت الثمانين سنة . وأما دار الأرقم فتقع شرق الكعبة ، على منحدر جبل الصفا ، يمر بها الساعون في سعيهم بين جبلي الصفا والمروة جيئةً وذهاباً . ويؤخذ من خوى الرواية القديمة أنها كانت فسيحة ، وثيقة البنيان ، محكمة الرجاج ، ثم هي مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه المزايا مركزاً صالحاً لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبي دار الأرقم » في السنة الرابعة من بعثته « وجعل يدعو فيها ، كما يقول مؤرخو السيرة . وقضى النبي فيها سنتين أو أكثر قليلاً ، وقد حقق عليه السلام ، في هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته في نفوس أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار في جميع آفاق المجتمع المكي . وفي

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجري عادة في تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فها هو ذا في صدر فناء الدار بسمته ووقاره ، وجاذبيته ، وروحانيته ، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجلهم في مستقبل السن وعنفوان الشباب .

ها هو ذا يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي من تلك السور المسكية الأولى ، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحده ، وترغيب في ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهاهم أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تنفرج عنها شفتاه الكريمتان وحيثما كانت أو حديثاً .

وهاهم أولاء ينقلبون دعاة ينشرون الدعوة في أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى في الدين الجديد جمالا وخيرا . وهاهم أولاء الراغبون في الدخول في الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلنوا إلى محمد دخولهم في دينه وقبولهم لرسالته . فمنهم من يأتي إليها تسلا وخفية ، كما فعل صهيب وعمار ومصعب بن عمير . ومنهم من يأتي إليها في وضوح النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهاهو ذا النبي يأخذ بمجامع رداء عمر وقد التبس عليه أمر بحبته ويجبذه بجبذة يتزازل لها قلب ذلك الفتى المتعنت الجاح ، فلا يملك أكثر من أن يعان إيمانه بالله ورسوله . وهاهو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهاهم أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكبيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب في ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يبرح دار الأرقم ، فقد كثر أصحابه ورسخت في قلوبهم دعوته ، فيبرحها ويواجه قریشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا يرون الخير كل الخير في أن يعم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز ، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا .

أما بعد، فقد عرف المسلمون في مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها
وشرفها، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه
أراد أن يضاهي بعمله هذا ما عمله معاوية بن أبي سفيان من شرائه دار الندوة .
ثم صيرها المنصور لولي عهده المهدي . وصيرها المهدي لزوجته الخيزران . ولما حجت
الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعتها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها، بعد شرائها من
أصحابها . ويظهر أنه في ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه في تلك
الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عالية، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار
الخيزران، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد
ذلك ؛ وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهاني في سنة ٥٥٥ هـ
كما يؤخذ من كتابة لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثماني مراد الثالث .
وكان السلطان سليم الثاني قد أراد أن ينشئ فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة،
فصرفته عن ذلك شواغل الملك .

فليت القائمين بأمر الحجاز يعمنون بأمر هذه الدار العظيمة، فينشئوا فيها
مدرسة تعلم فيها أصول الدين الإسلامي، فلعمرى! لقد كانت أول وأعظم مدرسة
في الإسلام، ومنها سالت السيل وانبتقت النور .

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد^(١)

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ،
جزل الالفاظ ، سرى المعاني ! إذا لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة
أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ،
وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية
بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة في أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وأسفاه ! ليس شيئا من ذلك الشاعر الذي
يتمنى أن يكونه . إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها
الوضعية جهد طاقته ، ويشهد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له
ولا بمحاولة التطاير والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب
سبيل المؤرخ الذي همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقتنع
القارئ الكريم بالصورة المجملة التي أرسنها في هذا المقال ، حتى يتأذن الله
بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك
السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه .

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تنهيا للأحداث

(١) الرسالة ، ٢٠ أبريل ١٩٣٦ .

الجسام التي تمخض عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، ويهمننا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذي أقره في جملته الإسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الأزواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحا ، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد .

وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الإرث ، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في ماله ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا في الحياة المملكية العامة قبيل الإسلام وفي عصر النبوة .

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور . وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان خويلد من قاد قريشا في حرب الفجار ، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبي يقول في رُجدها عمرو بن خنشر المزنى أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأما يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصى ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤى ، واكتنفت عمود هذا النسب الجليل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتهما حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى في صديقه ابنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش في الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا في تلك العصابة المستنيرة التي يعرف أحادها باسم « المتحنفين » قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « بمن ينظر في السكتب » على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

خديجة من أوسط نساء قريش نسبا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للمؤرخ أن يلاحظ عمل الوراثة في هذا المقام ، فإننا نقول إنها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لقيت عن عمومتهما تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر .

تزوجت خديجة مرتين في مستقبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عاتد بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها ، عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمى ثم توفي أبو هالة فغدت أيتما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثا قيما رأت أن تقوم على استغلاله في التجارة التى كانت مرتزق قريش في ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تسنأجر الرجال في الاتجار لها بما لها لقضاء نصيب تسهمه لهم من الربح .

ولكن خديجة الحسبية النسبية ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفاً في النساء ،
عوانا بين الشباب والكمولة ، قد شارقت الأربعين ولما تعدها ، وهي سن لها
عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذه ، وكان غير واحد من كبار
قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة
منها في العزوبة ، فهي أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن
الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذي يعجبها . لقد نضج عقلها ،
وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما يندش الكف والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ،
والقلب الكبير في مجتمع خشن ، كثيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك
السودد العربي الجاهلي بما ينطوى عليه في واقع الأمر من بدانة واعرابية ،
لا يمكن أن تفيء منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت
تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكي ، ويوشك أن
ينكشف عن كوكب وقاد يملأ السكون نورا هاديا . وحرارة تبعث فيه الحياة
قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة
لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة فتي لا يزال مغموراً ، ولكن كل
مخايله كانت تؤذن في نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم وبوجهه وجهة
جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ،
مشرق الطلعة ، زبيل المظهر ، كريم الخبر . وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها
بمكة أحد غيره . كان زاهداً في الناس ، عزوفا عنهم ، الا ما اقتضته ضرورة
المعيشة والمساكنة ، نزوعاً إلى التفكير ، محباً للعزلة ، قادعاً للشهوة رادعاً

لنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنسه في وحشته ،
وانبساطه في انقباضه ، وغناه في اقلاله ، قد حدد ما بينه وبين الناس بحد واضح
المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتتفص عليه نعمة باله ،
وتفسد عليه هده سر به .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عندما كانت تلمح هذا الفتى
العجيب ، يروح لطيفه ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من
فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولسكن كيف تفضى إليه بدخيلة نفسها ،
وتبته لآعج حبا ؟ ان الحسب والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعها
أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى .
لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة . حرجا كل الحرج فلتسر في الأمر بحذر
واحتمياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحياها .

انها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها وتساهمهم بنصيب مسمى من
الربح ، فلم لا تستأجر محمدا وتضاعف له الجمل الذي كانت تجعله لغيره ؟
وانشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه
رغبته . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام في صيف عام ٥٩٤ متجرا
في مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كشب وينهى إلى
السيدة عند عودته جملة حاله في السفر ، فتلم بجملة حاله في السفر والحضر . وباع
محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه ، ثم
عاد وقد رجحت التجارة ربها وفيرا . وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد
في السفر من رقة الشرائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلمت السيدة عند
ذلك أن قلبها لم يكن بها ، فقطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هي الخطوة

الأولى ، وتقول هي الكلمة الأولى ، وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة
بذت منبه ، فدسستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة - يا محمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد - ما يبدي ما أتزوج به !

نفيسة - فإن كفت ذلك ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ،
والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد - فمن هي ؟

نفيسة - خديجة !

محمد - وكيف لي بذلك ؟

نفيسة - على !

محمد - فأنأ أفعل !

لا شك أن محمد لم يقل مقالته الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة
خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفاً بعطف ، وتقديراً
بتقدير . نعم إنها أسن منه ، وأسكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى محاسنها
وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه . وعرض محمد
الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبني محمد بها بعد
أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ،
كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت
تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

في محمد كرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها رجاجة العقل وكثرة العطف عليه ، والأعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته في منزله . ومطابقته فيما يحب وما لا يحب .

ولا ننس أن محمدا لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق . فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم . ولا كل الشراب يشرب ، ولا كل الملابس يلبس . ولا بكل الزينة يزدان . ثم هو ميال بطبعه إلى العزلة مؤثر للصمت ، مطيل للفكر . فعلى جليسه وعشيرته أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له ، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية ، فلا شك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل والتمر المنقوع في اللبن المخلوط بالقشاش أحيانا ، ولا شك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاف كثرتهمما نفسه . كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه . فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملابس . ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء في المنزل . وإذا جنح إلى الخلوة أو التحنث في الغار لم تقطع عليه سكونه . بل أعانتة على ذلك بإعداد الزاد الذي يحتاج إليه . فإذا طالت غيبته افتقدته من غير ازعاج له . ولا تكدير لصفو نفسه .

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحففيه بزوجها . فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير إبراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمة وأم كلثوم . وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة . ثم ولد له في الإسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والظاهر . وقد مات الغلامان صغيرين .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام . وتزوجن ، وهاجرن . وقد انضم إلى

هو لاء على بن أبي طالب . ضمّه النبي إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب وكان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلمى بنت صفية مولاة عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم . وبعد ذلك قبل ولادها ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها . فهي التي أشارت على النبي بأن يزوج أبا العاص بن الربيع من بنتها زينب . فلما زفت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن فيما بعد سيرد ذكره . ولما أرادت قریش حملة على أن يطلق زينب نكاحاً في محمد أبي أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبي حزينا مهموما لهفان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمة عند زوجها علي بن أبي طالب بالمحل الرفيع والمكان الممتاز

لكن فضل خديجة الأكبر ونفرها الخالد خلود الزمن ، إنما هو في موقفها من زوجها عندما نبى ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه من

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادئ السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوي إليه وأهل يسكن إليهم ، فأنصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى في مسلكه

بأسا . فلما فجىء الوحي محمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والخيرة ، ورجع إلى منزله رعبا حائرا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون بي جبن ! » لم يكن منها ألا أن ثبتت فواده ، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة : والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ... وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر . . . الخ ثم أنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة بأن الذي رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذي نزل على عيسى وموسى . وقد أثبتت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها . فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبري بإسناده إلى عفيف السكندی أنه قال : « كنت امرأة تاجرا ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس . فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلي معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي ، وخرج غلام فقام يصلي معه . فقلت . يا عباس ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به ، قال عفيف . فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فكنت أكون ثالثا . »

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها بزوجها إلا شدة ، فكانت في السنوات العشر الأولى للبعثة ، وهي السنوات التي توالى فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أئمة اضطهاد ، كانت خديجة في تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فأنخفف الله بذلك عن رسوله لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تلبته ، وأنخفف عنه وتصدق به ، وتهون عليه أمر الناس .

ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تشرك زوجها في محنته ، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنهضة دعوته صابرة محتسبة . فعندما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خديجة في الشعب تقاسي ما يتقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سننها وضمحلل بنيتها : فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين . كان طول الحصار قد أضرب بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . باللغة من العمر خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب . وهو الذي كان ينافع دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد في وقت واحد خطبان فادحان . ورزآن بالغان . ولكن لا شك في أن داخل رزئيه كان الأفدح : وباطن جرحيه كان الأدمى . لقد تهدم صرح سعادته المنزلية . وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج .

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه . وأكرم من ألا يفي لحبيب صدقه الحب . وأصفاه الود . ولو باعست بينه وبينه طباق الثرى . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد رقى لها في حالي الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها في حياتها ، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وهم يرون في ثنائه عليها ودوام تذكره لها اخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببیت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بعلادة قلدها إياها خديجة ، لتفتدي بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر بيد رقيق النبي لذلك رقة شديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها حاج غير عائشة وهي بعد أثر نسائه لديه ، وأجملهن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في ما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء ، قالت : فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً .

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً ؟

الهجرة^(١)

كان من أثر الاتجاه المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شئ بالفلاسفة الكلاسيين القدماء الذين كانوا يجردون الإنسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير إلا رياء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا . ولست أجد فى التاريخ الإسلامى أنقض لتلك الدعوى وأشد تكديبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة ، ففى كلتا الهجرتين تجد الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والتزهر عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارئ أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة العامة التى ابتعثتهما وأدت إليهما .

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا موارد فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثنيهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعى الذى فرقهم أغنياء وفقراء وسادة وعبيدا ، مهجنا تكثرهم بالأحساب والأنساب ، مقبحا طرقهم الملتصوية فى المعاملات . من تطفيف السكيل والميزان وأكل أموال

(١) الرسالة العدد ٤٢ ، ٢٣ ، أبريل ١٩٣٤ .

الناس بالباطل . محذرا لهم إن هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب الهداية والإصلاح .

لم يجب هذه الدعوة التي تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكانة في المجتمع القرشى . أما المسألة من قریش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا في محمد تائرا يريد هدم النظم التي درجت عليها الجمهورية المسكية من قديم . ثم من يدرهم لعلمهم إن هم اتبعوه التأف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم في عدم متابعتهم ، وهى حجة الجامدين على المصلحين فى كل زمان ومكان .

وكان موقف قریش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكن محمدا كان النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجدت قریش نفسها بإزاء رجل لا كالرجال وخصم ليس كخصمه من الخصوم ، فهى إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنهج فى مقاومتها خطة إيجابية تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزئ به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا إلا أرذالها وسفلاتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعانياته . إن يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق فى السماء ، أو فليسقط عليهم كسفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبيلا . ثم انتقلوا من هذه المعايه الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى

والعذاب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتن من
شدة البلاء .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه الحق
الضعيف في مقاومة المبطل القوى . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهي أرض
قديمة الصلة بمكة . وبها مالك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتسب بحماه .
فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة ،
وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعبية إلى بر الحبشة فتلقاهم النجاشي لقاء حسنا
وأذن لهم في المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبدى أن يخفر ذمتهم
لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه . فلما تبدلت الأحوال
بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز
وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أي بعد أن لبثت بأرض
الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جرت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعة
هذا بأن اعتقدت إسلامه ، وبأن النبي ﷺ قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن
تجسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملأها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم
والمطلب في بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم
وبين جمهور قريش ، وقد انفذت هذا الحكم ، وقضى بني هاشم والمطلب في
الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهدا جاهدا حتى لقد كان يسمع صوت
صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا . وأخيرا قام في قريش من عطفته
عليهم عاطفة الرحم والقرباة فسعى في إخراجهم من الشعب فأخرجوا .

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سيقب إليه طويلا ، ففي السنة

العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من
النصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، وأصبح محمد وجها لوجه أمام
عدو حنق عليه كان يتربص فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلالها استغلالاته . فجعل
يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفهاء يعتمدونه بالأذى والهوان .

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به علي أصحابه منذ سنين
عندما اشتد تحامل قريش عليهم : أخذ يفكر هو أيضا في الهجرة . لقد دلت
تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة في واد
ونفخة في رماد ، وإذا ففيم المقام بواد غير ذي زرع حقيقة ومجازا ؟ فليهاجر !
ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث
إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيرا . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من
مكة : إلى الطائف ، لعل ثقيفا تجيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن
أبر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضنت عليه بجوارها ، ثم
زادت فأغرت به سفهاءها ، فما زالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن
حارثة إلى حائط من حوائط ثقيف وهنا .. وقد خلا إلى نفسه ورببه . فاضت
أشجانته واعتلجت في صدره همومه ، فانبعث يناجي ربه : اللهم إليك أشكو
ضعف قوتي ، وقلة حياتي ، وهواني على الناس ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب
المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلمني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو
ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي
أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلى عليه أمر الدنيا
والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ،
ولا حول ولا قوة إلا بك .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا في جوار سيد من ساداتها هو
المطعم بن عدي . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى
بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج لعل كل قبيلة تصغى إليه فينتقل
إليها ويبلغ دعوته في ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لو كان صادقا
لا تبعه قومه ، إلا ما كان من أمر أهل يثرب . ففي عام ١١ للنبوة لقي النبي عند
العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فأمنوا وصدقوا ، ووعده
أن يذشروا الدين الجديد في قومهم . تلكبيعة العقبة الأولى . فلما كان العام
القابل وافي الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبي عند العقبة
أيضا فبايعوه علىبيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال على ألا نشرك بالله
شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي بيهتان نفتريه من
بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن
غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب ،
تلكبيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحبنا من أصحابه دينا لبقا فطنا
ليفقه القوم في الدين ، وفي الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسير
غورها وينهي إلى النبي ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد
أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول
على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافي
مكة جم غفير من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشركهم . فواعد المسلمون
منهم رسول الله أن يلقوه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا
وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهي تقوم على تعهد
الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه ، يقول الطبري

ه فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهدهم ، على أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإننا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وبهذه البيعة أصبح للرسول يثرب أنصار يؤوونه ويندودون عنه .

لكن ندرك السبب في مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه، ينبغي أن نلم بحال يثرب في السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحي ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأهم يتوقعون ظهور نبي منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم ويقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعدمون أن ييؤحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي في بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظلم زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا ، والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام » .

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

الدينية في فهم قبول الأنصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم . لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج التي سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثورات . وكانت الغلبة بوجه عام في تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا في أن تأذن لها بالنزول عليها بمكة ، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط في شيء من ذلك أيضا . فعادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج أرسلت إلى اليهود تحذره عاقبة هذا الحلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير محالفي الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلمانهم يكونون بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذي طلبوا . ولكن الخزرج كانت قد قرمت إلى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخبر قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر : إما أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن تقتل غلمانهم . فلما رأت اليهود أن الخزرج قد لجت في طغيانها ، وأن حيادها لن يجري إليها خيرا ، عند ذلك خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة ، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بني قينقاع ، وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة في يوم بعث الذي كان قبيل الهجرة بنحو خمس سنين . في ذلك اليوم أدبل الأوس وحلفائها ، من الخزرج وحلفائها ، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم . جاء في صحيح البخارى عن عائشة : « كان يوم بعثت يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملأؤهم وقتلت سراتهم » ويفسر السهمودى هذا الحديث بقوله « ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ، ويأنف أن يدخل في الإسلام » إلى أن يقول « وقد كان بقي معهم من هذا النمط عبد الله بن أبي بن سلول . . . وكذلك أبو عامر الراهب . . . فشقيبا بشرهما » .

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال ، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجى قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان اليهود ، ولذلك اتجهت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب ، وأقبلوا ينظمون له الخرز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تسكن هناك رغبة صادقة في تملكه . أما الأوس فكانت تسكره أن يصير الأمر إلى خزرجى مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسما بالغدر وخذلها عند الحرب ، فكان بذلك مسئولا إلى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستنكف أن يلى أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه .

فلما لقي حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة . فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حاجهم المحتلة ، ونجتمع على حكومته آراؤهم المختلفة ، هو نبي عربى ينزل عليه الوحي

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر أجنبيا عن يثرب ؛ ولكن حكومته ان تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟ إذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبي ، وليبايعوا محمدا ، وليكن ذلك في غيبة ابن أبي ، وليكتبوا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبي بيعاتهم الثلاث بمكة . قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى « . . . وقالوا له « للنبي ، إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه علىبيعة العقبة الكبرى « . . . فاعترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها . يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ . ثم قال بل الدم الدم ! والهدم والهدم ؟ أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، فالمسألة من ناحية الأنصار لا تعدو أن تكون حلفا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ، وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة الأخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه في الخروج إلى يثرب في
أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوّة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل
الحرم تخرج من مكة أرسالا وتنزل على الأنصار في دورهم . فخرج في نحو
شهرين زهاء المائتين . وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بنى
مظعون وبنى جحش وبنى البكير . قال ابن هشام : فغلقت دار بنى جحش هجرة ،
فربها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة .
وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس
فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحبوب
ثم قال هذا عمل ابن أخى هذا ، فرق جماعتنا وشئت أمرنا وقطع بيننا ،
ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلى وإلا من كان مفتونا أو
محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذى أصبح يتهددها من جراء تلك الهجرة وذلك
لحلف الذى عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤها في دار ندوتها ليقابل
الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افرقت بها الآراء وتشعبت
المذاهب ، فمنهم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفي
من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن رأى الأخير هو الذى اجتمعوا
عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله : « وإذ يمكر بك الذين
كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ،
ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع على عشيرته المطالبة بدمه فأمرؤا فتيانا من بطون
قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ويرضى

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأمرع إلى الخروج خفية من داره إلى دار صديقه أبي بكر ، وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة ؛ دليلا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وأبو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهتمجت فيها قریش اهتمجا شديدا وجعلت لمن يأتي بالنبي حيا أو ميتا جعلنا سنيا . وإلى حادث الغار يشير القرآن بقوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنین إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام » .

توصف الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافرين في بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هي يشقها طريقان : إحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد أثر الدليل الذي اتخذته أبو بكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنة ، ويسرة تضليلا لمن عسى أن ترسله قریش في إثرهم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك الجماعة سراقه بن مالك طامعا في قتل الرسول وأخذ جعل قریش ، ولكنه وجد نفسه أمام أربعة أشداء فكان قصاراه أن نجا بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقا ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أبح فقديد ، فلما قارب بدرا مال بهم يمنة إلى العرج ، ثم هبط وادى العقيق الذي يؤدي إلى المدينة . ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولا إلى قباء قرية بني عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام .
وأقام النبي ثلاثة أيام بقاء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينة . فلما كان يوم
الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملائ بن النجار . وقد لحقه بقاء علي بن
أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما
اطمأن الرسول بالمدينة أنفذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته .

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين
الأوليين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غرباء . لقد كان أول
مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم
وأصابتهم الحمى وعراهم داء الحنين إلى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذى
بذلك إذا أخذه دوار الحمى . روى البلاذري بإسناده عن عائشة أم المؤمنين
أنها قالت : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن
اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة . فكان أبو بكر يقول في مرضه :
كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
وكان بلال يقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة
وهل أردن يوما مياه مجنة
وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه
إن الجبان حنفته من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه
كالثور يحمي جلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا

مكة وبارك لنا في مدها وصاعها .

وتتمثل هذه المشقة كذلك في الفاقة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فعادت عليها قريش فاغتصبوها تشفيا من أصحابها . روى صاحب أخبار مكة « إنه قيل للنبي ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل من لا . قال وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك . فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت ، فلم يزل مضطربا بالحجون ، وكان يأتي المسجد من الحجون ، ويروي ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كانت يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه أبوه : أين مالي يا خبيث ؟ فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروي ابن هشام كذلك « أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثرت مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب . أرايتم إن جعلت لكم مالي أنحلون سبيلي ؟ قالوا نعم ! قال فإني جعلت لكم مالي . قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ! ربح صهيب ! » ويروي ابن اسحق أنه « لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يسطيك الله بها دارا خيرا منها في الجنة؟ قال بلى قال
فذلك لك . فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، كابه أبو أحمد في دارهم فأبطأ عليه
رسول الله ﷺ . فقال الناس لأبي أحمد يا أبا أحمد ! إن رسول الله ﷺ
يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب في الله عز وجل ، فأمسك عن
كلام رسول الله ﷺ (فيها) « وما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم
بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله
في رواية الواقدي فقال : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وهراة فاكسهم ، وجياع
فأشبعهم ، وعالة فاغنهم من فضلك » .

من أجل تلك الفاقة كان المهاجرون في السنوات الأولى من الهجرة عالة
على الأنصار . وذلك مظهر ثالث للحقوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا
وفادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم المواساة ، ولكن تلك الحال ليس من
السهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذري أن النبي عندما أراد قسمة
غنائم بني النضير قال للأنصار : « ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال ، فإن
شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وإن شئتم أمسكنم أموالكم
وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا
ما شئت . فنزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال
أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما
قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت	بنا نعلنا في الواطئين فولت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا	تلاقى الذي يلقون منا مللت
فسدو المال موفور وكل محصب	إلى حجرات أدفات وأظلت

هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزأهم مشوبة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى : إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما .

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنينهم وأيامهم ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم . إنه لا شك قد لحظ في الهجرة أنها بدء رسوخ الإسلام ، واسكننا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة : حياة الألم والتضحية والإخلاص ؟

كيف كان الرسول يسوس أصحابه^(١)

لقد تحدث المؤرخون فأكثرُوا عن قدرة الإسكندر قديماً و نابليون حديثاً على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم ؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق أسفاره البعيدة المتزامية ؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا ، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والانضمام إلى نابليون ، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا جملة .

واسكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طوحت به فتوحه إلى أقاصى المشرق وأراد التوغل في بلاد الهند ، امتنع عليه جنده وحملوه على أن يعود بهم أدراجه ، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسره في واترلو ، بل إن قائداً من أعظمهم هو المارشال ناي الذى لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون و نابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار .

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله ! إذا علموا أن الرسول العربى قد بز الأولين والآخرين في اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته . ذلك بأن محمداً لم يكن يتنزل من أصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علواً في الأرض

(١) الثقافة ، العدد ٥٩ ، ١٣ ، فبراير ١٩٤٠ .

ولسكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بأدواء النفوس
وأساليب علاجها ؛ وكان عليه السلام يروضهم ويسوسهم على هذا الاعتبار
وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض
ما يوضح هذه الرياضة ويحلو تلك السياسة .

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب
المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخي
بين المهاجرين والأنصار ، مرتباً على تلك المؤاخاة وجوب التضامن والتعاون
في الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد ظل التوارث جارياً على هذا النظام إلى
أن شرعت أحكام الميراث ، فصار التوارث يجري على مقتضاها .

إلا أن فريقاً من أهل المدينة يتزعمهم عبد الله بن أبي وقصفوا من الدعوة
الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين
نظراً إلى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحمهم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا
يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن وعرفتهم السيرة . وقد لقي الرسول
منهم عناء شديداً ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم في أناة ورفق يستثيران
منتهى الإعجاب ! من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه
لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه
ويستقون ؛ فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهجاه الغفاري
كان أجيراً لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن وبرة الجهمي كان حليفاً
للأنصار ، وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب عند ذلك عبد الله بن أبي ،

وطفق بلوم من كان حاضرا من قومه لأنهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ولج به الغضب حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبي رسول الله . فاعتم لذلك غما شديدا ؛ وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابه الرسول : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ » ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطوون المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ؛ وإذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها . فهذا عبد الله ابن أبي قد أتى إلى الرسول يحلف له أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطالب إلى النبي إن كان لا بد أمرا بقتل أبيه أن يتولى هو ، أي الإبن ، قتله ، فيقول له الرسول : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » وهؤلاء رهط عبد الله بن أبي قد استخذوا لسالك ابن أبي ، وأصبحوا كلها أحدث حدثا هم الذين ينفقونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى » .

وإلى القارىء مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم في بيان ما نحن بصددده .
رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن الرسول أعطى في هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قبل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وأن لا ترد إليه قریش من يأتي إليها من مع محمد ،
وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قریش أبا جندل بن سهيل بن عمرو ، وهو رجل
مسلم انقلت إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد
أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بدنهم ويحلقوا
رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجته أم سلمة ،
وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة
حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم
كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى القوم ذلك تواثبوا ينحرون
ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه خلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون .
فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المخلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله . قال
« يرحم الله المخلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال : « والمقصرين » فقالوا
يا رسول الله ، فلم ظهرت الترحم للمخلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكروا » .

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفة قلوبهم من قریش وقبائل
العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحداً من الأنصار ، فوجد
الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، ودخل عليه
سعد بن عباد وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك
يا سعد ؟ » قال : ما أنا إلا رجل من قومي قال « فاجمع لي قومك في الحظيرة »
فلما جمعهم سعد أتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« يا معشر الأنصار ! لقد بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ! ألم آتكم

ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغنناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ .
قالوا : بل الله ورسوله آمن وأفضل . ثم قال : « ألا تحييوني يامعشر
الأنصار ؟ » .

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : « أما
والله لو شئتم لقلتم ، فإصدقتم ولصدقتهم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا
فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فأسيناك . أوجدتم يامعشر الأنصار في
أنفسكم في لماعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟
ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول
الله إلى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ،
ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار .
اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . » .

قال فبكي القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا
ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

من هذه المثل نقبين الأسس التي كانت تقوم عليها سيامة الرسول أصحابه .
كانت تقوم على جميع الكلمة والحلم والرفق ، بذلك كان عليه السلام يقتاد
العصى ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على أن يزداد إحسانا . على أن الأمر لم
يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الأسوة الحسنة والروح
المتدفق والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطبائع النفوس وأسرارها الذي
لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره .

من ذكريات الحج^(١)

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت في الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، فسكنت في كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعلق بأهل بيتى وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبى ورأى ، فسكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيته العتيق ، وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الإمام ، واندفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطبيب قد رسم لى بما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وماهى إلا أن ترامت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمم جباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهيام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية . وحاذت بنا السفينة رابغا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فماهى إلا سويغات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا :

(١) الرسالة عدد ١٨ ، ٢٤ مايو ١٩٣٩ .

أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، ونفوس مطمئنة راضية ، ووجوه
وضيئة مستبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر في
الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم وقار السن جمال التقى فزادهم
روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلتهم
مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف !

وما برح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقللنا السيارات نؤم
مكة أم القرى . فبلغناها في الهزيع الثانى من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو
نحس نصبا ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتناع النوم إلا غرارا فوق
متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . وراح صحبى وقد شارفنا البلد الأمين ،
يتذاكرون الحديبية ، وذا طوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من
المماهد التى أثارت فى أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه ونأناته ، وذكريات
ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادى والوثنية
الفضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، نعم وذكرى ما احتمله الرسول
وعصابتة القلبيلة فى سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ،
وانزعاج آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لمقامنا بأعلى مكة ، فقدفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا
نؤم الحرم لنطوف بالكعبة ونسعى بين الصفا والمروة . وإن أنس لا أنس
مشهدنا وقد انتظمنا موكبا واحداً وأخذنا ننحدر من المعلاة فى جوف الليل
الهميم ونسير رويدا رويدا ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف ملبيا بصوته الأجش ،
فتردد نحن التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتجاوب بأصدائها جنات

الطرق وتمضى صعوداً في السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ، ومنه عرفت كيف
تسمو الروحانية في الإنسان على المادية متى استغرقته الفسكرة السامية وتولاه
الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من
أبواب الحرم الكثيرة . وتحتبس الأنفاس ، وتجب القلوب ، وتمتد الأبصار ،
كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذي كان يضم
في تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود .
وكنت قد قرأت في بعض الكتب وصف الحرم المكي فلم يشق علي أن أتبين
معالمه لأول مشولي فيه . فهذه الكعبة مؤطرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد
ووسطه . وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ،
وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام
إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردها الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا
سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد في جملة مسقوفة حواشيه ، وأما
سائر فسقفة السماء وفرشه الحصباء ، وتطل عليه جبال أبي قبيس وقعيقعان
والصفا والمروة .

وأها لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشادا ، واحتفلت
فيها مظاهرها الرائعة احتفالا ! قد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض
بسهلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فأنا حر لافح ، وأنا
برد قارس ، وآونة جفاف تنقلص منه الشفاه ، وأخرى سيول دافعة تنحط من
أعلى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وأنا سماء مصحبة وجو طاق ، وأنا
سحاب مركوم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم للتعبد في هذه البقعة بعينها من معاني التوجه المباشر إلى الواحد القهار
المستخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هذا النحو الذي لا يحتمل جدلا
ولامراء ! وكفى بهذا التعبد باعثا للعبد على الإناهة والإخبات والخشوع ، وكفى
به مشعراً لقلبه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة في محيط
هذا الوجود الذي لا يسبر الوهم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجسد
الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف في الفن الرفيع والأدب العالى بالعظيم
والجليل حسا ومعنى .

إذا كان الحرم المسكى يوحى إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجليل ،
فإن للوقوف بعرفة — وهو أهم مناسك الحج — وحيا آخر ومغزى
عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً . ويشرف على هضبة
مترامية الأطراف ، ينزلها الحجاج في مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم
ورواحلهم وسياراتهم التى تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بعرفة أخذ
الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون فى الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ،
ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب
مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من
حياتهم بيضاء يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقفت
بعرفة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين ، وأشهد أن المنظر رائع ، بل
هائل ! وأى منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء
ولكن من خلائق يمج بعضها فى بعض ، فتحس لها همهمة البحر المحيط أو

الجيش اللهم ؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح ، وكل مقر بالضعف ، معترف بالعبودية ، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها ، فلا فاضل ولا مفضل ، ولا سيد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضيع . لقد جاءوا الله كما خلقهم ، وكما يقبضهم ، وكما ينشئهم النشأة الأخرى . لقد ردوا أنفسهم في ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التي يتساوى فيها الناس جميعا ، وعلموا أن ما سواها متاع الغرور .

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحى معانى الجلال والبساطة ، فإن في الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس ، ولكن شهوده واجب على المسلم في شرعة الذرق السليم على أقل تقدير . ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة . ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا ، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحي عند توجهنا إلى مكة . لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير . أما الثانى فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول ، إلى إنسان أثير حبيب .

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام ، فهو حبيب إلى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته ، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على الزمان .

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذى يعد في مقدمة البلدان التى أثرت في تاريخ العالم أبلغ التأثير . ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة ، وعدت روما عظيمة بما بعثت في عالم السياسة من دولة نخمة ، فإن المدينة عظيمة بالأميرين جميعا ،

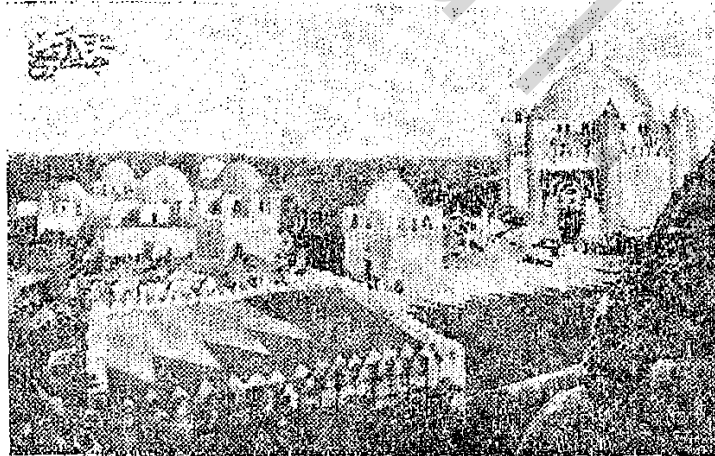
وكفاها شجراً أنها مهد المدنية الإسلامية والدولة العربية، ومشى محمد بن عبد الله.
وظفقتنا نتجول في خطط المدينة وطرقها الضيقة المتوية ونشق فيها ريح
القدم وعظمة الماضي وتتعرف معالمها ومعاهدها. هنا بركت ناقة الرسول لأول
قدومه المدينة، هناك السبع الذي نزل أبو بكر، تلك آطام اليهود، هذا أثر
الخنزق، ذلك جبل أحد، تلك سقيفة بني ساعدة، هذا البقيع، وهذا مهوى
الأفئدة ومحط الرجال، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف.
ألا لقد رأيت في أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب، وأشهد أنى
لم يأخذنى شيء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عندما وقفت حيال قبر الرسول
العربى. إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان. أما
عظمة محمد فطلقة ليس المكان ولا للزمان عليها سبيل. أولئك وردوا وشلا
تحت أقدامهم وفى متناسول أيديهم، أما محمد فورد ببحر الحقيقة الطامى وسر
الوجود الخافى فنهـل وعـل، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث، أما محمد
فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية ما بقيت الأرض والسماء.

والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة.
وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول، طابع منزل الرسول، ومجالس
الرسول، ومسجد الرسول؛ فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى
منزل صديق حميم أو أخ كريم. كل شيء فيه يبعث فىك الأنس وينفى عنك
الوحشة، فأنت فى منزلك، على حد تعبيرنا المألوف؛ تلك السقوف العالية
تتلى منها الثريات الوماجة. وتلك البسط الوثيرة، وتلك النقوش المذهبة
تغشى الجدران، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة، وتلك القبة المذهبة فى السماء،
كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأنس، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان

الصادق والإنسانية الصحيحة . الحرم المكي يريك معنى الإله والألوهية ،
والحرم المدني يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما فى المدينة جميل : جمال فى الطبيعة تعرفه فى الماء والزرع والسهل
والجبل ، وجمال فى الخلق تعرفه فى دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم
الأنصار برسول الله قسما وحظا فى حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث فى المسجد
وفى الذكرى التى يشيرها ، جمال فى جمال فى جمال .

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعرفة ، والجمال بالمدينة . ولست
أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعانى الثلاثة من الحجاز .



رسالة الحج

تأليف الأستاذ ح. ع. (٢) (دبلوماسي)

الأستاذ ح. ع. من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي ، مشـل مصر ولا يزال يمثلها في ممالك الشرق العربي ، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية في الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب وساستهم وأدبائهم وعلمائهم . وإني لسعيد بأن أقول إنى اطلعت على ذلك بنفسى في بعض تجوالى في ربوع الشرقين الأدنى والأوسط . وقد واتى الحظ الأستاذ ح. ع. وساعفته ظروف عمله الدبلوماسي فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس فى أنشائها على هدى التاريخ وفى ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامى الجليل المحدود خامس أركان الإسلام . ثم صاغ خلاصة دراسته فى رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام وإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن « الحج » ومن خير ما أخرجه المطابع المصرية فى هذا العام .

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة (السنة الثالثة) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

(٢) هو المرحوم الطيب الذكر الأستاذ حافظ عامر بك .

ينعى الأستاذ على المسلمين في صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجاج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبي ، فكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شيء حكمته وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لي أخيراً أن الحج لا يزال مجهولاً في حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملاً فردياً محضاً ، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر .. »

والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها في أن الإسلام دين إنساني عام ، وأنه دين المساواة التي تظهر في شكلها المادى المحسوس في الحج ، وأن السكينة من العالم الإسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها في الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامى فى أسبى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمراً عاماً لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام نفراً من صفوفه رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ، والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع في هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفسير العقل البشري فيها ، فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعي بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمي الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال باللبية ، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين : أن تجدد دعوة الأستاذ ح.ع . من أولى الرأى في العالم الإسلامى آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، ألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟



عمر بن الخطاب في عام الرمادة^(١)

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب في الجاهلية قتي في خلقه جفاء وشدة ، وعرفوه في عهد النبوة صحابيا من أمضى الصحابة عزيمة ، وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه في خلافته فاتحا عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راعيا رءوفا برعيته كل الرأفة ، وأبا لأمتة شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدره حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة بيضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديد الشعور بالمسئولية عمن ألقيت إليه مقاليد حكمهم « حتى لقد أنزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والعشيرة . تلك صحيفة سيرته في الشدة التي نزلت بجزيرة العرب في العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة : العام الذي بدأ من منصرف الناس من الحج في سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت لذلك بالرماد .

ولقد دهم عمر بن الخطاب من أمر الناس في ذلك العام شيء عظيم . فنظرة

(١) الثقافة ، العدد ٢٥٩ ١٤٦ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

الحاكم الإنسان الشفيق كانت تمثل له هول القحط وقتك الجوع بالناس ؛ ونظرة
السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة يوشك أن تلم
به سكتة يكون فيها انهيار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد الأمر تجردا ، وعلم أن في إنكار الذات ، ومضاء
العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ
الناس بالالاقتصاد فى معيشتهم ، وجعل يخلطهم بنفسه ويعيش كواحد منهم . فكان
يطعمهم أول الأمر الثريد من الخبز مádوما بالزيت ، وربما نحس لهم فى أيام
معيّنة جزورا يجعل لحمها على الثريد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم
غرفوا له ذات مرة أطايب الجزور ، فإذا قدد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ ! بخ !
بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، وأمر مولاه بأن
يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ
العيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة
بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه . فجعل البدوى يتتبع الودك
فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل !
ما أكلت سمنا ولا زيتا ، ولا رأيت آكلا له مذكذبا وكذا قبل اليوم . خلف
عمر لا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تفرقر من أكل
الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تفرقر ! لا والله لا تأكله حتى يأكله
الناس . وكانت لابنه عميد الله بهمة ، فجعلها فى التنور ، فخرج ريحها على عمر
وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجتراً على هذا ! وقال
لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجدت البهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استتر على سترك الله ! فقلت : قد عرف حين أرسلني أني لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابني فقرم إلى اللحم ، فذهبته له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكة رامة محمد هزلي ؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ، فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة ففعل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف رياح الموت بأرجائها فتتحمل القبائل من بواديها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البـدو في النوائب والأزمات ، فأنزلهم عمر بأرضها فيما بين رأس البثنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشـهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة . وأنزل منهم طائفة ببني سلمة ؛ وكان عمر يتعاهدكم بنفسه . قال أبو هريرة : يرحم الله ابن حنـمة ، فقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ، وفي يده عكة زيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم فلما رآني قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى انتهينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من محارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستنفونها . فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم انتزر ، فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبـرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته . فسكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستعجدهم . وإلى القارىء نص الرسالة التي دارت بينه في هذا الشأن وبين عمرو بن العاص حامله على مصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : سلام عليك . أفتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ! ثم ياغوثاه » . فسكتب إليه عمرو : « سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث . فلا بعث إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » . ويظهر أن عامل الشام والعراق ردا بمثل هذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت في البحر الأحمر في عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث عمرو في البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق ، وندب عمر من ثقات رجاله من استقبل المدد الوارد في البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعل الظروف ، أى الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينة ، من حمل ما بعث عمرو في البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولسكنه واف بالغرض المطلوب . فسكون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن مخزومة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر مواعيد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة

عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم في منازلهم . هذا في الأيام التي يباح فيها أكل اللحم . أما في الأيام الآخر : فكان عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور السكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فيأكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فيأخذ !

وكان النفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه . فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا ! فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام في منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

غير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن خفف من وطأة المجاعة ، فلقد كان متعذرا أن ينقل إلى الجزيرة في تلك الأيام من المؤن ما يكفي لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الخشن الخشب ، الذي اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحملوا عليه حملا . فوقع الفناء في الناس ، حتى قيل إنه هلك في تلك السنة من العرب الذين نزلوا بأرض المدينة نحو ثلثهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عدا من هلك في داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتي بنفسه فيصلي على الموتى ، ولقد رأى مرة وهو يصلي على عشرين جميعا . فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يعي عمر بالأمر ولا ضاق به ذرعا . بل نهج في تفريج الكرب وتهوين الخطب منهمجا جديدا هداه إليه فيكره السليم وقلبه الكبير .

عمر بن الخطاب في عام إلى مائة^(١)

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلبا وأصح تفكيراً من أن يقف في مكافحة الشدة التي نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحية المادية وحدها . لقد علم أن الناس إذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فربما انقلبوا سباعاً عادية وذئاباً ضارية يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض الأمم في مثل تلك الحال . فينبغي إذا أن يعصموا من الكفر والهلاك ، أو من التدهور والانحطاط بعاصم الدين ووازع العقيدة . ينبغي ، وقد خوت بطونهم ، أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه في الشدة كما يتوجهون إليه في الرخاء . ولعمر الحق ! لولم يكن من وراء ذلك إلا أن يبرءوا إلى خالقهم وإلى أنفسهم من معرة الفزع والظلم ، ويستقبلوا الموت راضية نفوسهم ، مطمئنة قلوبهم ، لسكنى ؛ فكيف والصبر على المحن والشدائد من صفات المتقين دلائل الإيمان الصادق الصحيح ! !

ومن ثم جرد عمر لمنازلة ما حل بالناس من آفات الجوع والعري والمرض قوة الدين ووسائلها من دعاء وصلاة وابتهاال وأخذ بالصبر على ابتلاء الله وتمحيصه . وهي نفس القوة التي نازل بها من قبل ومن بعد عوامل الفساد الاجتماعي والاضمحلال السياسي في أملاك الفرس والروم .

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ٢٦١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وبدأ عمر بنفسه على عادته في المنهج الجديد الذي نهجه والخطوة التي اختطها،
فكما جعل نفسه المثل والقُدوة في الاقتصاد وعفة النفس ، فكذلك أحب أن
يكون المثل والقُدوة في صحة التدين وصدق التضرع إلى من بيده الأمر كله .

روى الواقدي بإسناده إلى ابن عمر قال : « أحدث عمر في زمان الرمادة
أمراً ما كان يفعله من قبل . كان يصلي بالناس المشاء ، ثم يدخل إلى بيته فلا
يزال يصلي إلى آخر الليل . ثم يخرج فيأتي الألقاب فيطوف عليها ، وإني لأسمعه
ليلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي وفي ولايتي » .
وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال : « قال رأيت
عمر رضي الله تعالى عنه يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ عام
الرمادة وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع هذا البلاء عنا : يردد
هذه الكلمة » .

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته ، وهي صلاة يصليها المسلمون عند
امتناع المطر واشتداد الجذب . روى البلاء ذري بإسناده إلى السائب بن يزيد ،
قال : نظرت إلى عمر يوماً في الرمادة وقد غدا متبتلاً متضرعاً ، عليه برد لا يبلغ
ركبتيه ، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن
عبد المطلب ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء ، وعج إلى
ربه ودعا ودعا الناس معه » .

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاماً يشمل حرب الجزيرة جميعاً ،
فكتب إلى عماله على نواحي الجزيرة وقبائلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس
يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم . وخرج
عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلي فنخطب

الناس فتضرع، وجعل الناس يلحون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستخفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مداً وحول رداءه كما يفعل المستسقي بشمل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مده يديه وجعل يلح في الدعاء ويبكي بكاء طويلاً حتى انخضلت لحيته. « وخرجت العرب في ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم إلا غبرات أى بقايا. فخرجوا يستسقون كأنهم المنور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله » .

وأخيراً يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وباليسر بعد العسر . حدث ابن سعد بإسناده قال : « قال عمر للعباس بن عبد المطلب ، يا أبا الفضل ! كم بقي علينا من النجوم ؟ قال العواء ! قال كم بقي منها ؟ قال ثمانية أيام ! فقال عمر ، « عسى الله أن يجعل فيها خيراً » .

والعواء بالشمس يد نجم يظهر في أفق الجزيرة في فصل الخريف والشتاء ، وطاوؤها يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أيلول ، وسقوطها لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من آذار .

قال ساجعهم : إذا طلعت العواء وجثم الشتاء ، طاب الصلاء . وقد جعل الله في تلك الأيام الثمانية خيراً كما رجا عمر . حدث محمد بن سعد بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال : « قال كنا في الرمادة لا نرى سحاباً ، فلما امتسقى عمر بالناس مكثنا أياماً ، ثم جعلنا نرى قزع السحاب ، وجعل عمر يظهر التكبير كلما دخل وخرج ، وجعل الناس يكبرون ، حتى نظر إلى سحابة سوداء جاءت من ناحية البحر ، ثم تشاءمت فكان الحيا ، .
وأرسل الله السماء على الجزيرة مدراراً ، فاعتمت الأرض الهامدة السوداء

أن دب فيها ديب الحياة ، فاهتزت وربت وأنبتت السكلاً والعشب ، فتغنى
الطير ورتعت الأرام ، وثغت الشاء ، ورغت الإبل ، وحممت الخيل ، وبدت
معالم الربيع العربي في جميع أرجاء الجزيرة .

هنالك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك النفر الأربعة الموكلين
بمن في نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأعراب إلى البادية ويعطوهم قوتاً
وجملاناً ، وكان عمر ربما تولى العمل في إخراجهم بنفسه .

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلاً لو تهادى القحط عاماً آخر ، أو لم
تتوافر عنده المؤن الكافية ؟ ويحينا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذري
بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للناس
من المال ما يسعهم لأدخلت على كل أهل بيت عدتهم فقاسموهم أنصاف بطونهم
حتى يأتي الله بالحيا ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم . » ولعل من هنا نشأت
عند عمر خطة المقاسمة التي اتخذها بعد بإزاء العمال الذين كانوا يثرون على حساب
مناصبهم ، فكان يقاسمهم أموالهم على النصف ، فيأخذ النصف لبيت المال ويدع
لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر بليغ الرفق بالناس عندما آخر تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما
كان العام القابل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحصلوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا
نصفها على الفقراء ويقدموا عليه بالنصف الآخر . وقد بين عمر لموزعي
الصدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبقت له السنة
غنا وراعياً ، ولا يعطوا من أبقت له غنمين وراعين ، وكذلك واسبى عمر

الفقراء في تلك الشدة في غير ما عنت بالأغنياء ولا إعانت لهم .

ولقد لقي عمر في عام الرمادة نصيبا شديدا ، ونال منه الجوع والإعياء .
حدث ابن سعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : « رأيت عمر رضي الله
تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعهدته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، « لم
أسود ؟ » فقيل إنه كان يأكل السمن واللبن ، فلما أحمل الناس حرهما حتى يحيا ،
فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر » .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال :
« كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر الناس » .

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



عمر الفاتح^(١)

(الروح الذي وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس ينقضي عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال
قواد العرب القدماء ، أمثال المشي بن حارثة ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن
أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وحذيفة بن اليمان .
فهم الذين قوضوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا في
مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق
وفارس والشام ومصر . ولكن ينبغي ألا ينسينا لآلاء هذه الفتوح ، وما انعقد
على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون
ما فعلوا ويبلون ما أبلوا لولا روح فياض غمرهم ، وعقل جبار سيطر عليهم ،
وعزيمة ماضية صرفتهم ، هي روح عمر بن الخطاب وعقله وعزيمته .

ولعلنا لا نكون مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا
أعوانا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبة مع كسرى وقيصر ، وإنه في
حقيقة الأمر هو الفاتح الذي فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية
عالية الذرى ، ثابتة الأساس ، متينة البنيان . ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحمل الثانى

(١) الهلال ، نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٠ - ٤٤ .

ولربما طعن الفتي أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندى البارز بروز من ذكرنا من القواد . وتعليل ذلك الخمول الظاهري غير عسير . لقد كانت سنه في الجاهلية أصغر من أن تأذن له بنشيان الحرب . أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأدبية أثر عند الرسول وعند أبي بكر من شجاعته الحربية . فكان عندهما أظهر في مقام الرأى والمشورة منه في مشاهد الجلال والطمان . على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حربية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تدبيره قتال الردة مع أبي بكر . وقد أدرك أبو بكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعا مباشرا . فيروى أنه قال وهو على فراش الموت : « ووددت أنى كنت إذ وجهت خالدا بن الوليد إلى الشام ، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله » . فقد عده أبو بكر عدل « سيف الله » وضريعه . وكفى بذلك دليلا على رسوخ قدمه في فن الحرب وكفايته في شؤون القتال . فلما ولي عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر .

كانت كفاية عمر الحربية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور ، وسلامة الإدراك ، والإحاطة بطبائع البشر أفرادا كانوا أو جماعات ، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق افتراضها ، ومواجهة الأزمات والطب لها . هذا إلى نشاط جسم ، وعزيمة صارمة ، وذهن نفاذ . وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب .

وكان لعمر مظهر ومخبر . ويا بعد ما كان بين مظهره ومخبره ! فهو بادی الرأى رجل من أهل المدينة ، ساذج العيش ، يأكل أجشب الطعام ، ويلبس

أخشن الثياب ، ويناام حيث يندرکه النوم . وسلاخه درته ، ومطيته قدمه ،
یروح ویغدو کأحد الناس ، لا یفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه سادتهم
بعبدانهم . یبد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لورأى
دون ذلك المظهر ، أعوذیا مشمرا ، قد استحضرت فی ذهنه میادین القتال فی الشرق
والغرب . فهو ینتخب الرجال ، ویعی الجنود ، ویرسم المواقع ، ویختط الخطط ،
ویبعث رجلا بعینه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر ، ویأمر بالإقدام
تارة وبالإحجام أخرى ، ینقل الأمداد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى
الشرق ، لا یکاد یستأخر حسابیه فی ذلك أو یستقدم یوما واحدا . فإذا ما أحکم
الخططة وأعد العدة قال لأصحابه فی هدوء الوائق ینجح مسعاه : « قد رمینا ملوک
العجم بملوک العرب . فانظروا عم تنجلی ! » ، فإذا ما أفلح سعیه ، وأثمر غرسه ،
وجاءه نبأ الفتح والظفر تلتقاه فی خشوع وإخبات وتواضع تزیده روعة
وعظمة وجلالا .

ویطول بنا القول لو ذهبنا نقیم البینه علی صحة تلك الدعاوی فی جمیع میادین
القتال الذی نشب فی أيام عمر بین العرب و بین الفرس والروم . فنکتفی بالتدلیل
علی صحتها فی مقام واحد : هو وقعة القادسیة (١٤ هـ) الممدودة أعظم وقائع
العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر علی العرب بالعراق بعد وقعة الجسر (١٣ هـ) التي أودت
بقائدين عربیین هما أبو عبید ثم المشنی بن حارثة ، وصمم الفرس علی طرد العرب
من بلادهم ، قام عمر للأمر وقعد واهتم له غایة الإهتمام فکتب^(١) إلى عماله
علی قبائل العرب وکورهم : « ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

(١) الطبری ج ٤ ص ٨٢ .

أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والعجل العجل ! . فلما توافقت إليه
التجندات حارفيمن يؤمره عليها . وهم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق ،
ولكن ذوى مشورته ثنوه عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأي
وتمام الشجاعة ويمن النقيية فأمره عليها . روى الطبرى ^(١) قال : « وكان سعد
على صدقات هو ازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك . . .
فوافى كتابه مشورتهم ، فقالوا قد وجدته ! قال : من ؟ قالوا : الأسد عاديا !
قال : من ؟ قالوا : سعد ! فأنتهى إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق
وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر في عسكرهم
فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم
فأمضاهم نحو العراق ، وأمضى النصف الآخر نحو الشام . »

« فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضى
إلى الجبانة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس ، وعرف
عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبيهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة
بن شعبة في خيله . وكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم » ^(٢)

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التي ينزلها وبخطة الحرب وبميعاد تحركه .
قال الطبرى ^(٣) : « وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر . . . أما بعد فسر من
شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . . فإذا انتهيت إلى القادسية . . . وهو
منزل رغب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار بمنفعة فتكون مسالحك على
أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .

(٢) » ص ٨٧ .

(٣) » ص ٨٧ .

والجراع بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرح منه ، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم ،
رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدثهم وحدثهم . فإن أنتم صبرتم
لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع
لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تسكن الأخرى
كان الحجر في أديباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من
أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرا وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي
الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب الهجانات
وعذيب القوادس ، وشرق بالناس وغرب بهم ، .

ثم كتب عمر إلى سعد يستوصفه المنازل والبقاع ويستخبره عن
أحوال العدو (١) : « ... واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي
مصادمتكم ، فإنه منعني من بعض ما أردت السكتاب به قلة على بما هجمتم عليه ،
والذي استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين
المدائن صفة كأني أنظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية » .

فكتب إليه سعد : « القادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية
بحر أخضر في جوف لاح إلى الخيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما
الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق
والخيرة ، وإن ما عن يمين القادسية إلى الوجلة فيض من فيوض مياههم ، وإن جميع من
صالح المسلمين من أهل السواد قبلي لب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا . وإن
الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا
ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

(١) الطبري ، ص ٨٩ - ٩٠

لنا . فكتب إليه عمر : « قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينقض الله لك عدوك ، وأعلم أن لما ما بعدها . فإن منحك الله أديارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن » .

« ووضع سعد بالعذيب خيلا تحوط الخريم ... ونزل سعد القادسية ، فنزل بقديس ، ونزل زهرة بحيال العتيق في موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا أحدا ، ولم يسندوا حربا إلى أحد علمناه ، ومتى ما يباغنا ذلك نكتب به . واستنصر الله فإننا بمنحة دنيا عريضة دونها بأس شديد »^(١) .

« وبعث سعد عيوننا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمي حربا وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر « لا يكره بك ما يأتيك عنهم ولا ما يؤتونك به ... وبعث إليه رجلا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعوهم ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجاء عليهم . واكتب إلى كل يوم » .

« .. ولما عسكر رستم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر »^(٢) . « ثم إن سعد بن أبي وقاص حين جاءه أمر عمر جمع نفرا عليهم نجار ولهم آراء ، ونفرا لهم عنظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك ، وكان من أمر هذا الوفد العربي ما رواه الطبري من مفاوضاتهم لرستم أولا ويزدجرد أخيرا . وهي مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٩١ .

(٢) » » ص ٩٢ .

سأباط إلى القادسية للقاء سعد^(١) « المحرم عام ١٤ هـ » .

كانت كفة الفرس هي الراجحة في اليومين الأولين من أيام القادسية ، ثم كان من صنع الله للعرب ، ولطف تدبير عمر أن قاسم المدد من الشام في اليوم الثاني وقد زلزل العرب زلزالا شديدا ، فقويت عزائمهم وانتصفوا من الفرس في اليوم الثالث ، وهو المعروف بيوم عماس . قال الطبرى^(٢) : « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا ، العرب والمعجم فيه على السواء ، ولا يكون بينهم نقطة إلا تعاورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل النجدات ممن بقى عنده ، فيقوون بهم .. فلولوا الذي صنع الله للمسلمين بالذى ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لهم بها شتم كسر ذلك المسلمين » .

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع ، وهي المعروفة عندهم بليلة الحرير . فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوهم انتصارا عظيما .

قال الطبرى^(٣) « وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله منهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم بفضل

(١) المصدر نفسه ج ٦٤ ص ١٠٠ .

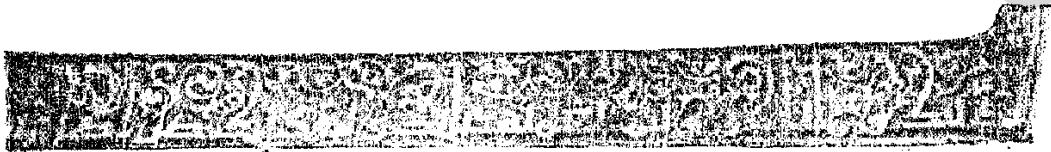
(٢) » » ص ١٢٦ .

(٣) » » ص ١٤٤ .

من معنى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم .

ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقي البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبيد الله ! حدثني . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلا أخبرني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى !^(١)

ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة ، فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بناها ووطئته بمنسما ، نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : « أبانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل . أكل عمر كبدي ، أحرق الله كبده »^(٢) . ولما هم الأعاجم المهيمون بالمدينة أن ينتقموا من فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر ابن الخطاب ناغتالوه . ولعمرى لقد كان رستم وأبولؤلوة ومن أمروه على قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعد من روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا رفضهم عمر على استئثاره بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أدعى إلى الرفض وأجل خطرا ؟

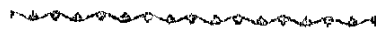


(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) » » ص ١١٤ - ١١٥ .

دولة الأكاسرة^(١)

٢٢٦ - ٦٥١ م



لقد شهدت إيران في تاريخها الطويل دولاً إيرانية كثيرة : شهدت في الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشخانيين ، والساسانيين . وشهدت في عصورها الحديثة دول الصفويين والزنديين والقاجاريين إلا أن الدولة الإيرانية التي يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم ويفخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيراني والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هي الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التي قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلاً .

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قياً على بيت نار مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جليداً هماماً ، حريصاً على بعث القومية الإيرانية التي أماتتها أو كادت غارة الإسكندر المقدوني على فارس في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، راغباً في استعادة المجد الذي كان لإيران على عهد الدولة السكiane العظيمة ، والذي قضى عليه الفاتح المقدوني في عشية وضحاها . وما زال بابك يسعى وتوابعه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه مملكة كانت قاعدته

(١) الثقافة ، العدد ٤٦٤ ، إبريل سنة ١٩٣٩ .

مدينة (خير) الواقعة شرقي شيراز . فلما توفي خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١) فاقبني أثر أبيه ، ونزع منزعه في السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورة من ملوك الطوائف ، حتى فطن لما ربه كبيرهم أردوان الأشغسانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحالها ، ولسكن أردشير ساحله الحرب حتى قضى عليه في واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصوراً . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التي نشأت عن الفتح المقدوني ومبدأ لعهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

والمتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضت أمورها واختلت أحوالها في أوائل القرن السابع الميلادي يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثل ، هي ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التي وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك في أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هي فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين ما يسمى على سبيل الاصطلاح شرقاً وما يسمى غرباً .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هي الراجحة على وجه الإجمال في ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط في الهضبة الإيرانية ولا قاتلوا خصومهم في عقور دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصاراهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتائبهم في سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك ، في حين أن الفرس على عهد كسرى أبريز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أمكنهم أن ينتزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يربطوا في البر الآسيوى تجاء القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بعض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

عاصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم في أول سورة الروم بقوله : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفنا بون » الآية . ولقد يكون أروع حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الروماني وليريان أسيرا في يد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠ م وقضاء ذلك الإمبراطور التحس بقية حياته أسيرا ذليلا . لقد رج هذا الحادث الجلل العالم الروماني رجا عنيفا ، كما كان سبب فخر لا حد له للفرس الساسانيين . ولقد استنظر الساسانيون في حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالخيرة في القرن الرابع الميلادي ، وينشئوا بها مملكة الخيرة المشهورة التي نفعت الدولة الساسانية نفعا مزدوجا ، فكانت عوننا لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرقي الجزيرة العربية وجنوبيها . ولقد نهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الخيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربي للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالتهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهجيرة التي تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدرءوا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطة أولا وعلى قبائل الترك أخيرا ، وأن يسيطروا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذي عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد في هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تمكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك . فأما الفرس فقد كان من سياستهم بإزاء عدوهم الروماني

أن يفتحوا أبواب بلادهم للبخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فانتجعت أرض فارس نساطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ونزلوها آمنين مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير في رفع المستوى العلمى والثقافى للدولة الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستنيان (٥٣١ - ٥٧٨ م) بإغلاق مدارس الفلسفة بآثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لهؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس ، وقد تقبلهم العاهل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) بقبول حسن وأذن لهم فى نشر علومهم فى بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى امتزج بالعقلية الإيرانية والخيال الإيرانى ، فكان لذلك الامتزاج أثر قوى فى ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا . ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينا رسميا واحدا خير للدولة من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس والروم فى الحرب ، كما أظهرهم على معارف ومعاومات دينية لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحي حياتهم الحشنة الساذجة إلى حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالمدنية الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما وراء النهر لا يدرى أصله على التحقيق : أفرسى هو أم تركى ؟ .

قد يخيّل إلى القارىء أن الساسانيين لسكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم تارة والترك أخرى ، قوم لاهم لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم فى ذلك شأن الآشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب .

لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفورى الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكى فى إيران وجعله لا مجرد نظام معرض لعواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على الشعب الإيراني لبه وقلبه على السواء ، فألقوا فى نفسه أنهم سلالة الملوك السكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون فى الأرض بتفويض من إله النور آهورامزدا ، وأنهم ورثة ملك السكيانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهى ، وأن عليهم وحدهم سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياسات من المهابة والآبهة والعظمة ، يتمثل فى تاجه المتألق وسريه العالى وإيوانه المنيف ، وفى احتجابه عن الشعب ، وفى تلك المراسم الدقيقة التى كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمشول بين يدي كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التى عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسى القديم هو الزرادشتية التى ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر وتأمّر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران ماديان محسوسان إيجابيان ، فهى تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج والنسل وتعد ذلك خيرا ، وتنهى عن أضداد ذلك وتراها شرا .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا في كل مدينة ، بل في كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذي هو رمز الخير وطاردة الظلمة التي هي رمز الشر . وقد أدت تلك العناية بالدين الزرادشتي إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموابذة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر ماني ودعا إلى مذهبـه ، وكان مذهبا عدما سلبيا يرى الخير في الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل ، فإن بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربته فقتل ماني ونكل بأصحابه شر تنكيل . وقد قابل رجال الدين الزرادشتي هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسي بما لهم على الشعب من نفوذ روحي عظيم .

ومن المبادئ المقررة في سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعي الإيراني القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نخلته الشيوعية الهادمة لنظامي الأسرة والملكية ، وافتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نخلته ، ففرض على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على ماني وأصحابه .

وأجمل الفضائل السياسية التي كان يتوخى أكسرة الدولة الساسانية التحلي بها فضيلة العدل . وهي ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم ، فقد ورد في عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله : لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل ، فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا في نظمهم

التي تتصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

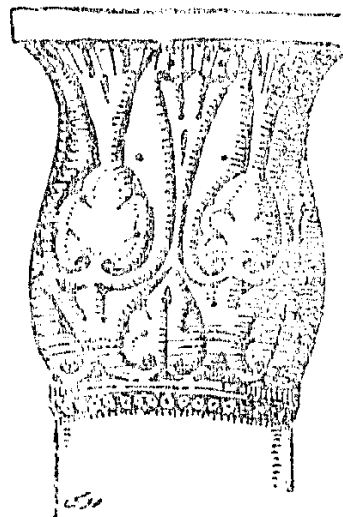
ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة الإكسرة تنطوي على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل في ثناياها العناصر التي أدت في النهاية إلى انتفاض أمرهم وضيق ملكهم ، فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والهرم من بعد كسرى أنو شروان لم يكن ممكنا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ، وينقله إلى أسرة أخرى فنية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقي الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جوبين في أواخر القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة للزرادشتية والمبالغة في رفع أقدار رجالها قد أدى في نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس في مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بإيران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذي كان عليه دون تعديل يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجة تحاجزا تاما أو غير قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا على ذلك النظام بصورته التي أصبح عليها في القرن السادس الميلادي .

وكان اجتماع هذه العوامل في نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة في الفوضى والارتباك ، وهي فوضى يكفي للتدليل عليها أن اثني عشر ملكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامي ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى في نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه في تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فائحين ! فلم يقر صرح الأكسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة في ميادين القادسية وجلولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكسرة وهو يزيد جرد بن شمسريار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٣١ هـ (٦٥١ م) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لبحود العامة وغرور الحياة .

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هي دولة عظيمة . لقد أقامت بایران معالم حضارة رائعة ، لا تزال آثارها شاهدة بروعتها ، كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهياتهم للقيام بدورهم التاريخي العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيرا فإن دولة الأكسرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقذوة للمسلمين فى عصرهم العباسى العظيم .



فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد ج. بتلر

و ترجمه محمد فرید البوصیری

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد بك يقول ما معناه : أننا الآن في دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية ، وهو قول لا غبار عليه ، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلمي والأدبي القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار في العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغي أن يتقدمه زمن تتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح في صدر الدولة العباسية .

إننا بهذا التوافر نبث في حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونسكبها مادة جديدة وأسلوبا في البحث والعرض العلمي جديدا ، ونسكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعدنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونسكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقیل مضمّن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهي من ناحية المترجم تطالب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للوئاف الذي ينقله ، وقليل من الناس

من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هي تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة في بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التي تصيبه مما ينشر ، فإذا استطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة السكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فإذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة في بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحمد لله ، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير في وضع قاموس عربي جديد يجمع شتات اللغة التي أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ما ترجم في السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه ، نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب السكون والفساد ، ونظام الاثنين وآلام فرتر لجوته ، وفافوست له أيضا ، والشاهنامة للفردوسي ، وأصل الأنواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب « فتح العرب لمصر » منذ ثلاثين عاما بحاثة إنجليزي هو الدكتور ألفرد ج . بتلر . ونقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم نشرته في هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع في قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . في الفصول الأربعة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية في

أوائل القرن السابع الميلادي . ويتكلم عن الثورة التي انتهت بأن أصبح هرقل
عاهل الدولة المذكورة ، وفي الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع
يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فنهضة هرقل واسترداده الإقليمين
المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكري ، فالحال
الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفي الفصل العاشر والحادي عشر والثاني
عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ،
واضطهاد قيرس البطريك المملكانى للأقباط في السنوات العشر السابقة على الفتح .
ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على
حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه
مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، فحصار حصن نابليون وأخذه ،
فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ،
فانتهاء السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين
يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكتبتها
المشهوره ، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة
وطرابلس ، والنظام الإدارى الإسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع
المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ،
والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بمخرائط
ورسوم تعين على فهم موضوعه

من هذا العرض يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى
لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور
بتلر قد جلا موضوعا من أروع موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

الغاية : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيباً
أوفى إلى الصحة منه في أى مصدر قديم . وأتى بالقول الفصل في حريق مكتبة
الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم في فتح مصر ، أصلها أم عنوة ؟ على
أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب
السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية
والاقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى في سهولة انتقال مصر من حكم الروم
إلى حكم العرب . ولقد ظهر في هذا الموضوع في العشرين سنة الأخيرة بحوث
قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث :
« النظام العسكرى لمصر البيزنطية » لجان ما سبرو . و « الإدارة المدنية لمصر
البيزنطية » لجرمين رويارد .

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن
عمراً عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجنود وخرج موقفه بين
جنود الروم جنوباً وشمالاً ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستعده ورأى
في الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف
عبور النيل إلى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ،
فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جداً في الخلاص
من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو
من شدة الدهاء وبعد المسكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث
هذه الغزوة نوعان : فنوع لا يعرفها بالمرة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على
صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ، ومع ذلك لم يعتمد عليها
المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهداً من كل المصادر

العربية ؛ ولكن القدم وحده لا يكون دائماً دليلاً على صحة المصادر التاريخية .
كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه في الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك
المشهورة كانت فشلاً لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرى إليه بها من مصادمة
الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبي ﷺ يرى إليه من شد سلطانة السياسى
على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف أن مسيحية المتنبى
ظهر باليمن (١٢١) والصحيح أنه ظهر باليامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية وحسب
القارىء أن يعلم أن الدكتور بتار قد أقام فى كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على
أساس علمى متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه .
فضلاً عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن
أهنيء صديقى فريداً على توفيقه فيها أخلص النهضة ، فقد جاءت صورة صادقة
للأصل مطابقة له فقررة فقررة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها
ووضوحها ، مما يشهد الأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعرى
أى مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستائة صفحة ثم لا يهفو
قلبه ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمتنة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار
أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

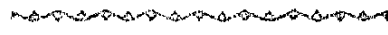
جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . (النذر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاي
المعجمة ؛ وفى ص ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De Goeje بـ (دى جويجة)
وصوابه (دى غويه) ؛ ووردت فى صفحة ٢٧ أيضاً كلمة (المونوفيسية) وأحسن
منها أن يقال (المذهب اليعقوبى) ؛ وجاء فى ص ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلاً من

(فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للأصل . وفي ص ٨٣ ترجمت Theology
(بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ؛ وجاء في ص ٢١٨ تسور الزبير إلى الحصن
والصواب أن يحذف حرف الجر . وفي ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridges
بـ (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ
الأول على البناء الثابت الذي يعقد فوق الأنهار ، وهو غير المراد من اللفظ
الانجليزي . وجاء في ص ٢٥٥ : وكانت « مسلحة » المدينة بدلا من : وكانت
« حامية المدينة » . وفي ص ٤٠٦ : وقال عن (النواوى) وصوابه (النووى)
بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لا تضر الترجمة شيئا : وإذا كان الكتاب مثالا
يحتذى من حيث دقة البحث العلمي فترجمته العربية مثال يفسح على منواله من
حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



على ساحل بحر الروم^(١)



إن عهدى ببحر الروم بعيد ليس بالقرب ، فلهشرات من السنين خلت
أذكر أنى كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا عليل الجسم رمد العينين ،
قد أعيا نطس الأطباء علاجه ، وحار فى أمره والداه أشد الحيرة . وأخيرا
وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لها أنه ينفع
طفلهما المريض . فكان أكبر إخوتي يقتادنى كل صباح إلى ساحل البحر من
« حى الأنفوشى » فيدفعنى فى الماء إلى حيث تغمر لجنته ساقى الناحلتين ، ثم يجعلنى
أنضج وجهى بالماء المالح بحيث يتخلل جفونى الرمد . وربما تجرد هو بعقب
ذلك من ثيابه فعبث فى الماء بعد أن يكون قد استسكنتنى ذلك عن والدى .
وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبث بالرمل أو نلتقط من صخور
الساحل بعض ما علق بها من الأصدا ف .

تم تأذن الله بذهاب المرض عني وعود الصحة إلى . ولست أشك فى أن
الفضل فى ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التى كنت
أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ،
وأعتقد أنى مدين له فى صحتى وعافيتى وحياتى كلها . وهما حب واعتقاد لم تزدهما
الأيام إلا رسوخا فى نفسى وتمسكنا من قلبى .

(١) مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٢١ ، اكتوبر ١٩٣٨ .

ودارت الأيام ، فإذا أنا تلميذ بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجعل طريق غدوى إليها ورواحي منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا وإن أنس لا أنس ما كانت تحتل عيناى فى تلك الأيام من البحر فى مختلف حالاته وتنوع منظره فتارة هو ساج ساكن كصفحة المسرأة ، وتارة هو هائج مضطرب يرمى بموج كالجبال ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر فى تلك الأيام يهدى بتعدد مسوره وتنوع منظره إلى فسكى الغض وخيال الناشئ ضروبا من معانى الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللا نهاية .

كان مبلغ حظى من البحر فى ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أتجاوز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات مخيفة تختطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلما ترعرت بعض الشئ كانا يقصان على نبا التيارات الخفية التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، ونساجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو للتشاجر على عادتهم أيامئذ ضربا « بالبنيات والروسيات » وتطاعنا بالمدى والسكاكين أحيانا .

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بى قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عنى رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حافلتها المصايف والحمامات والملاهي والمقاهي .

وكنيت لما قدمت من الأسباب لم أتعلم السباحة بعد . فوطنت النفس على استدراك ما فاتني من ذلك زمن الطفولة . وأردت الاستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعفنى ، فاستعنت بصاديق كريم عليم بذلك الفن ، وما هى إلا أسابيع معدودة حتى حذقت أن أمسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أغشى الحمامات مقيدها ومطلقها . ففى الحمامات المقيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أعنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتشذيبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود ينفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أديبة . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عيني على تعرف مواقع الحسن والقبح من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لقفته إبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة نمثل شيئا مما أثر فى الغزل والنسيب عن امرئ القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبى تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد نتذاكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وثمانيل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل انجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموحىها ، وبدايتها ومنتهاها .

ثم مضت أيام ، وتقضت أعوام ، فإذا بي أعلم في بعض الجامعات ، وإذا
بي زوج ورب بنين وبنات . وإذا العاطفة المشبوبة قد هدأت ، والعين الخائفة
قد ارعوت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاستكام .

جلست في يوم من أخريات صيف هذا العام على سسيف البحر من رمل
الاسكندرية . فلم يستهوني هذه المرة ما كان يستهويني من قبل ، من جسموم شبه
عاريات كالدمى ، مرموقات كالمنى ، آنا تصافح الموج وتلاعبه ، وآنا تخوضه
وتخالطه . وطورا ينتظمها الرمل ، فلولاً الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفوءة ،
وطورا يتوزعها الصخر ، فكأنما هي قطع الرياض الممطورة ، وآنا هن بين
الحالين ، يخطرن رائحات غاديات ، آنسات نافات ، قريبات بعيدات .

كلا ! ولم تأخذني هذه المرة روعة البحر ، وهو الذى طالما فتنت روعته
خاطري وسحرت لبي ، والذى له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه
فكيف بشكره كله ! وإنما عراني ما يعرفو الأساتذة المحنكين ، وإن شئت فقل
السكرول المجربين ، من ميل إلى التفكير ونزوع إليه عند كل مناسبة وحين
لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدي بذلك الساحل ، وكأنما الساحل
قد خلا من أسباب الفتنة ودواعي الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر
الروم الذى قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ،
والعرب ، وهى الحضارة التى ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جحد
الخلف فضل السلف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأننا وأبعدها أثرا فى
التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحله ما يقدر ذرعه بمئات الأميال ،

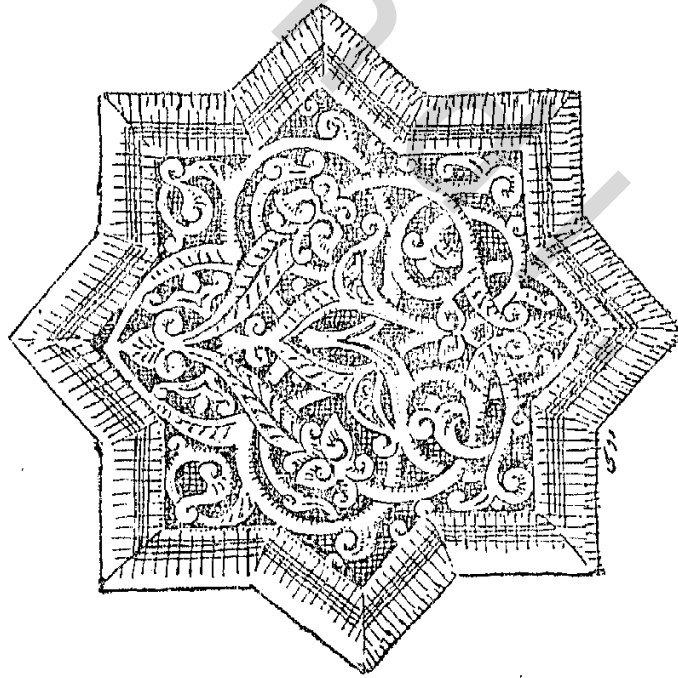
ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تعتمد عليها زمن السلم، ولا أسطول حربي ينافح عنها إذا جد الجدد، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الحال طبيعية، بل هي مقصودة متعمدة . فإن البحر باب عظمة الأمم وطريقها، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان البحر سلماً إلى المجد وسبيلها إلى التبسوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسيم البر في تنشئة الدول ورفع عمادها . رائن خفيت تلك الحقيقة على محدثي المشاركة فقد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تكون مفاتيح الشرق بأيديهم، وتركوا أهل البلاد ما وراء ذلك من رمال يتمرغون عليها وأحوال يضطربون فيها . وإن نظرة عجلي يلقى القاريء على خريطة الشرق لسكفيلة بأن تثبت له صحة هذه الدعوى . فما من مرفأ منيع ولا مرسى أمين، من لندن طنجة بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق، إلا وهو بأيدي المستعمرين الغاصبين .

لقد غدوت يابح البحر الروم لا تقتزن في أذهان شبابنا إلا بذكر الحمامات والملاهي، والمصايف والمقاهي ! فتى ياترى تصبح مقترنا بذكر الأسفار الطوال، والوقائع الجسام، إن كان ولا بد من وقائع جسام؟ متى تضعون أيها المصريون أيديكم على سواحلكم حقاً وتستغلونها حقاً، فتصبحوا أمة ملاحين . إلى جانب كونكم أمة فلاحين؟ لقد استرهنكم المستعمر الأرض ووضع في أعناقكم أغلالاً وفي أقدامكم قيوداً . ولا خلاص لكم من ذلك الرق المضروب عليكم إلا بركوب متن البحار . هنالك تنشقون فوق ثبج الماء ربح الحرية الصحيحة، وتبرأون من عالم وأدواء أورثكموها لزوم البر أحقاباً طوالاً، هنالك تنبعث مصر الحرة حقاً، مصر الحديثة حقاً، مصر العظيمة حقاً .

ولقد كنت أسترسل في تفكيري هذا لولا أن قطعه على ابني الصغير بقوله !
لقد ابتعد الجو ، وكادت الشمس تغرب ، فهيا إلى المنزل ! وانتهت ، فإذا الأفق
الغربي قد أحالته الشمس الغاربة طبا مضطربا ، وإذا الأفق الشرقي قد أخذ
يتلفف في غلالة سوداء ، ثم جعلت ظلمة المشرق تشتد وتمتد حتى استحال الأفق
كله ظلاما في ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث في النفوس
الوحشة والرعب . هنالك نهضت فاقتصدت أولادي نحو المنزل وأنا أردد قول
القائل :

للدهر لو كنت تدري هول منطقه لحن تردده الأصم والبكر



شعراؤنا وسيدنا عثمان^(١)

أبت الأقدار إلا أن يشقى بالخلافة سيدنا عثمان في حياته وأن تشقى بها ذكراه بعد مماته . فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب ، فلبث يغالبها وتغالبه ست سنين أخرى ، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا ، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا ، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصداعا لم يليئم حتى يومنا هذا .

عابوا عليه لينه وإيثاره مع هنات أخر ، ولو أنصفوا لعدوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاقى وترقق ماء الحياء في وجوههم وأصبحوا بعيدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جراءة وإقدام . وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن في النفس وخور في الطبيعة : فقد نصر النبي في كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوثب عليه من كل جانب وما رعدت له فريضة ولا اضطرب له جنان .

فلما مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تتعصب له وتنهى على مخالفيه . والناس عامة يتعجبون بالمتهمجين من السواس والمشهورين من أبطال الحروب ومساير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم ، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والتقديسين والعلماء

(١) السفر ٦ العدد ١٧٦ ٣١٦ أكتوبر سنة ١٩١٨ .

والأخلاقين وكان ذلك نزوع منهم إلى معيشة آبائهم الأولين، أيام كان للشجاعة الطبيعية الشأن الأكبر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحلي الوجه، الرقيق الطبع، الدمث الخلق، قد أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين في نظر الجمهور كبير . فلا هو في شدة عمر وعصرامته ، ولا هو في جراءة على وإقدامه، فكان كواد بين جبلين تتخطاه أنظار المتحمسين من المؤرخين ، كما تتخطاه أنظار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان واديا يجرى فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غصن الزهر ويانع الثمر .

قـرأنا « البردة » و « نهج البردة » و « كشف الغممة » و « العمريّة » و « البكرية » ولبثنا حيننا نتوقع قراءة « العثمانية » فإذا بنا في شهر وبعض شهر نقرأ ثلاث « علويات » طوال ، فمجبنا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى في اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطيء عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيرا مما يهمه خاصة من محرك للعواطف ومستفز للقلوب؛ ولعلنا لا نجد في التاريخ كله موضوعا أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفيلسوف والمكاتب التمثيلي والعالم الإجتماعي من موضوع الثورة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان . ولو انا ارتجعنا الأيام الخوالي وألقينا نظرة تنفس من قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرى وحى غرائزهم لرأينا منظرا عجبا :-

فهذه روح الجاهلية الأولى، روح الخلاف والشقاق، ترفع من رأسها مناهضة روح الدين الجديد، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل يتغلب حيننا على الحق .
وتنجم رؤوس الفتنة في السكوفة والبصرة ومصر، ثم تندفع من هذه النواحي

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتستحكم حلقتهما بالمدينة حول دار عثمان . وهذا
التخاذل يدب إلى قلوب النصراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا
عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم ؛ ولسكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن
يعلو صوضاء الجماهير وقعة السلاح . ثم يشهد الخطب ويعظم البلاء ويمنع
خليفة الإسلام الماء . ولسكن القوم الذين بلغوا من التدنى والنذالة مكانا قصيا
أبو إلا أن يذهبوا إلى أبعد منه . لقد اشتمت الذئاب الضارية ريح فريستها
وميات أن تنصرف أو تلغ في دمها وتطعم من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم
على عثمان باب داره ، في حين أن بعضا آخر يتسور الجدران ويقتحم الدار .
وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيئا فات السبعين من عمره ، أعزل من
السلاح قد انتحى مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجه
« نائلة بنت الفرافصة » تؤازره في بلواه . فما يتخشع المجرمون لذلك المنظر
الساذج المهيب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا
همت الزوجة البارة بالذود عن زوجها لم يتحرج أحدهم أن ينفخ يدهما بالسيف
نفحة أطنت أصابعها . وهكذا احتسى القوم كأس النذالة حتى الصبابة . ثم آبوا
شرمآب ؛ على أن الرواية لم تتم فهولا : فالجروب الطاحنة التي انتشبت بعد بين
المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخليفة المظلوم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، ويد
الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فبد الله عليها تذيقيها
وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتتل يوليوس قيصر
في الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا في أعماق سيبيريا في أيامنا هذه ؟

أبو ذر الغفاري^(١)

العربي القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدّهم استمساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حمية أن يجري عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف . ذلك الخلق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها وصيغ على مشالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعي إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكم للناس من فضائل هي وليدة بيئتهم ، وإن شئت فقل : كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامي مطبوعا في جملة به بالطابع العربي ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقةين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحووا مواريث أمم التبتس عليها أمر الحقيقةين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابعهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

(١) الرسالة ، أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الإسلام ، ولسكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد في الدنيا شغفها بها ، وتهالكوا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أنفقوا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءوا في ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل في القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة عنوة ، ثم زاد ففزع قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا بإذن وإلى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض قوة وتصميما :... ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا ! إني قائم دون شعب الحرة فأخذ بمحلامي قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار . فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياءه الجرم ، فانطلقت إلى الأمصار تفتنى المال الوافر والعقار الواسع والإقدمات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتتملك أرضا هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا في غلاته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلم لها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودي فيقول : « وفي أيام عثمان أقتنى جماعة من أصحاب النبي الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ... وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين

ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبید وألف أمة وخططا بجيث
ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبید الله التيمي ، ابنتي داره بالكوفة
المشهوره به هذا الوقت ، المعروفة بالسكناسة بدار الطلحين ، وكانت غلته من
العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (١) وبناحية سراه (٢) أكثر
مما ذكرنا ، وشييد داره بالمدينة وبنها بالآجر والجص والساج ، وكذلك
عبد الرحمن بن عوف الزهري ابنتي داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ،
وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ما له أربعة
وتمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من
الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة
مائة ألف دينار . وابنتي المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على
أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها محصنة الظاهر والباطن .
ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات
وغير ذلك . ثم يقول المسعودي « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن
تملك من الأموال في أيامه ، ولم يكن مثل ذلك في أيام عمر بن الخطاب ، بل
كانت جادة واضحة وطريقة بيّنة » .

مهما يكن من المبالغة في هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد
مشيرة لمعارضة جادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيخين
كان لا يزال قريبا ، ومبادئ الإسلام الديمقراطية لم تتمتع بعد من الأذهان ،
وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند إلى العنف والقوة المادية ،
وكان بالأمنصار الكبرى حيث الجنود الذين شادوا الدولة بسيو فهم والذين
أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم في الفء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل السكوفة :-

يليننا من قریش کل عام أمیر يحدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت
مجموع ، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية في الدولة العربية ، فقد خلفتها في ذلك
الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذي من
أجله لقبوا « بالأنصار » ثم أخذ نجم مجدهم السياسي في الأفول .
وأما النوع الآخر من المعارضة فكان يستند إلى الدليل الشرعي وإلى مبدأ
الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عالما رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان
صریح في الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفاري .

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت في الجاهلية تحترف
قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر من أرضها ، وهي حرقة لم يكن بها بأس
في عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية ، وانصف بما يتصف به
الأعراب عادة من صدق اللمجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما
فيها من خشونة وسداجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه
قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووحيد الإله ، وذلك قبل أن يبعث
النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبي عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد
مشكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل ، فرحل
إليه من فوره وما هو إلا أن ألقى فيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس
خمسة هم الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبي إلا أن يجهر في مكة بدينه الجديد

فتمدته قریش بالآذی، ثم ذهبت کثرت أنه من قوم تمر عیرها من أرضهم، فیکف عینه .

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم ،
ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة . وبذلك أصبحت غفصار من
القبائل التي ظهرت الرسول في محاربه قريشا . وقد لبث أبو ذر في قومه إلى
أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ، ثم قدم المدينة وخرج مع
الرسول في غزوة تبوك ، ولزم صحبته إلى أن توفي عليه السلام فكان بذلك من
أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر: فيروى أن النبي سمعه يقول
 «يا بني الأمة» فقال عليه السلام «ما ذهب عنك أعرايتك بعد» وتخلفت
 بأبي ذر راحته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده .
 فقال الرسول «يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» وورد فيه أيضا
 «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر» .

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب
ألحقه عمر في العطاء بأهل بدر تشريفاً لقدره وإن لم يكن منهم ، ففرض له خمسة
آلاف درهم في السنة . ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاوية أرض الروم سنة
٢٣ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ .

✧ ✧ ✧

فليس وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام
فرأى ما آل إليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها : رأى رجال الدولة
تسمى الفئ مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به ، أو التصرف

فيه كما يشاءون، ورأى المجتمع قد استحال فريقتين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين، فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذى شهد دورة الفلك كاملة، ورأى العرب فى جاهليتهم وما صاروا إليه فى خلافة عثمان، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك، وأعلن برنامجه فى الإصلاح. فأما النية فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه فى سبيل الله أو يعده لكريم، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى «والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم»، وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكية صريحة. وقد شاعت دعوته فى فقراء الناس ومحاوليهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشاركهم فى أموالهم، فتوجه الأغنياء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد: معاوية بن أبي سفيان.

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبي ذر فيما يدعو إليه، فبعث إليه فى جنح الليل بألف دينار، ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة احتالها، فوجد أبا ذر قد فرقها كلها، فعلم معاوية أن الرجل يفعل مايقول. فأقبل يجادله فيما يدعو إليه، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى النية (مال المسلمين) بدلا من (مال الله)، وليكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم للفقراء، رعبا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التى يستدل بها إنما نزلت فى أهل الكتاب وحدهم. وأعياء معاوية أمر أبي ذر، فجنح إلى أخذه بالشدة، فنهى الناس عن مجالسته وتهده بالقتل، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بإشخاصه إليه، فأشخصه إليه على شر حال.

لم يكن أبو ذر في المدينة بأسعد منه في الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن
دعوته، ويريه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير
فريضة الزكاة، وأن كل الذي يملك هو أن يدعو المسلمين إلى الاجتهاد والاقتصاد،
ولكن أبا ذر كان يريد برنامجا كاملا، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله .
فرأى عثمان آخرة الأمر أن يحصر الخطر في أضيق نطاق ممكن، فنفي أبا ذر
إلى الرينة، وهي مكان في البادية ناء عن المدينة؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر
من إبعاد أبي ذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله
كل يوم، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يترد
أعرايبا .

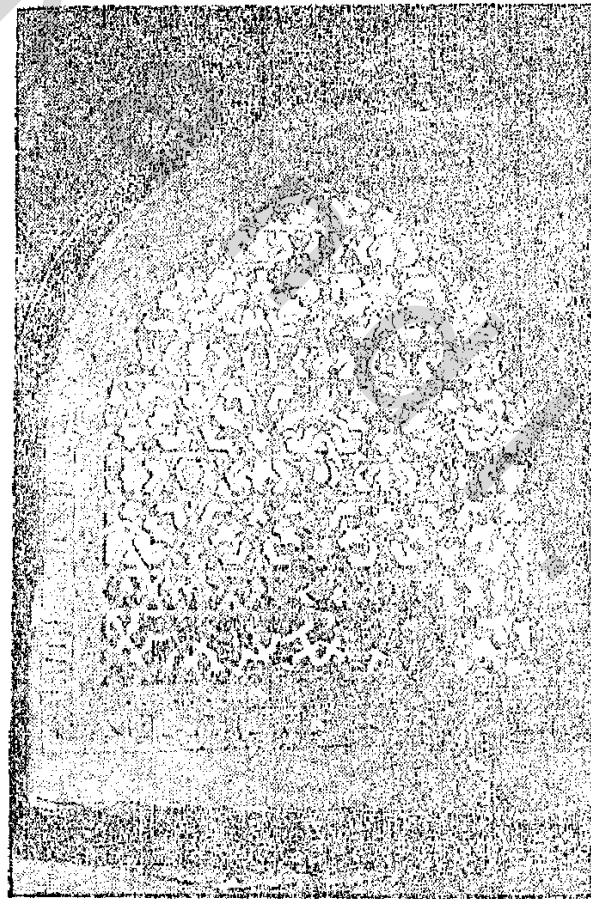
لم يكن أبو ذر ثائرا ولكن طالب إصلاح أرتآه . ومما يدل على عدم
نزوعه إلى الثورة أنه وهو في منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا
عن عثمان، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته
وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه . وأما مذهبه في الإصلاح فلا شك أنه
ابن بحدته، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم
حقا في ماله غير الزكاة، وكل ما ينهى عنه الإسلام في هذا الضدد إنما هو أن
تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته .

وعندي أن حركة أبي ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك
الشيوعي الذي ظهر بفارس على عهد قباد وكسرى أنوشروان، والذي كاد يقلب
نظام المجتمع الفارسي رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه . فإذا
عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعاء
يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام في خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار

الإسلامية داعياً إلى الثورة ، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما أنس فيه من
الميل الاشتراكية ، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة
الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقمع فى
الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة
الآمل ، فلما أدركه الموت فى سنة ٣٣ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة
ثباته على مبادئه حتى النهاية ، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده ، يروى ابن
سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبادر حارث امرأته فى أمرها لتوحيدها
فى تلك الفلاة « فكانت تشد إلى كشيح تقوم عليه فتنظر ثم ترجع إليه فتعرضه
ثم ترجع إلى الكشيح ، فبينما هى كذلك إذا هى بنفر تخدمهم رواحلهم كآهم الرخم
على راحلهم ، فألاحت بثوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، قالوا مالك ؟ قالت أمرؤ
من المسلمين يموت تكفنوناه . قالوا ومن هو ؟ قالت أبو ذر . فدفنوه بأبائهم
وأمهاتهم ، ووضعوا السياط فى نحورها يستبقون إليه حتى جأوه . فقال لهم ..
لو كان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن إلا فى ثوب هولى ، أولا مرأتى ثوب يسعنى لم
أكفن إلا فى ثوبها ، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا
أو نقيبا أو بريدا . فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا فتى من الأنصار
قال أنا أكفنك فإنى لم أصب بما ذكرت شيئا ، أكفنك فى ردائى هذا الذى
على وفى ثوبين فى عييتى من غزل أمى حاكتهما لى . قال أنت فكفننى
فكان ذلك الفتى الأنصارى هو الذى تولى تجهيزه ، ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطلقا سراج هـ هذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك
الشخصيات التي يقدمها الزمن عادة بين أيدي الأحداث الخطيرة إنذارا
للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يراعوا ولم يزدجروا .
على أن روح أبي ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه في تلك القفلة الباقع ، فقد
ظل صوته داويا إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من « غارة شعواء وحرب
مذكار » ووقعت الفتنة الكبرى التي يقال إنها انتجت كل فتنة حدثت في
الإسلام . ولقد كانت غفار من نهض فيها وألقى في نارها خطبا ؟



(١) العتبات المقدسة

~~~~~

كان يوم الجمعة الماضي من أيام ربيع العراق ، فالجو باسم طلق والهوى ندى  
رخاء ، وجوانب الأفق كاسية حالمة بالماء والخضرة والزهر .

خرجنا في صبيحة ذلك اليوم لنؤدى واجب الزيارة للعتبات المقدسة  
بكر بلاء والنجف الأشرف . وكنا رفاقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحبة  
وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقي هو في الحقيقة داعينا وهادينا في  
طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفي ، سليل آل كاشف الغطاء  
الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التنويه والتعريف .

\*\*\*

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيبا ، فكأنما عراها  
ما عرانا من الشوق والحنين ، فهي تعدو غير متأبية ولا مستعصية ، فأذكرني أمرها  
قول الشاعر العربي القديم :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| لقد زارني طيف الخيال فهاجني  | فهل زار هذى الأبل طيف خيال ؟ |
| لعل كراها قد أراها جذابها    | ذوائب طلح بالعقيق وضال       |
| تلون زبوراً في الحنين منزلاً | عليهن فيه الصبر غير حلال     |
| وأنشدن من شعر المطايا قصيدة  | وأودعتها في الشوق كل مقال .  |

---

(١) الغري، السنة الثالثة العدد ٩٣ . النجف الأشرف، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١

و ٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .

وإذا بنا في أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين موقفة متصلة الظلال ، فإذا بنا في ضواحي كربلاء ،

فإذا بنا في شوارع **كربلاء** ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن علي ، عليهما السلام .

كل شيء في كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارية ، ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئنة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران أريحيون كرام ، ولسكن ذلك الجمال كله ملفوف في غلالة سوداء لا تبين إلا لعين الناظر المتوسم ، فإذا تبينتها هاجت به لواعج أسى دفين لم يملك معها حسرة النفس وابتدار الدموع .

\*\*\*

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس الفضية تتحول خيوطا عسجدية اللون زادت معالم **كربلاء** جمالا كاسفا حزينا . قاستأذنا مضيفينا الكرام في متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا عدو الظلم ، في قفار يابسة جرداء قاحلة ، ليس بها من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من ديب السيارة فهي تسرع إلى أجحارها مستعينة بالله من بنى الإنسان وعدوانه . وبينما نحن تتقاذفنا تلك المهامه الفيح إذ رفع لنا على حافة الأفق الجنوبي ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فسألنا عنه دليلنا الخريت ، فقال : تلكم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلمتنا البيداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند ربوة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة في السماء . هنالك ترجلنا وسعينا على الأقدام إلى المسجد ، فدخلناه مخبتين خاشعين .

« السلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما والله ، لست أعلم ميتا غيرك  
لم تنل يد الموت من شمائله ونفحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد  
بذلك القفر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا في حياتك ، شأن كل قوال للحق  
عمال به في هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الربوة عال على لحظ العيون ،  
كذلك كنت في حياتك عاليا بإيمانك وتقائك وزهدك على نقد الناقدين وتنقص  
المتنقصين ! وها هي ذا رياض الفرات وغياضه تتراءى لك من بعيد كما كانت  
الدنيا تتراءى لك بزخرفها وبهرجها ، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل  
قائلاً : يا دنيا عرى غيرى ! وها هي ذى نفائس الألق وكرائم الأموال قد  
سيقت إليك وكذبت عند قدميك مقدمة لك من مواليك ومحبيك ، وها أنت ذا  
كأنك تنجيها عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : يا صنفراء  
ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هي ذى جموع الوافدين حولك كأنهم ينصبون إلى  
خطبة من خطبك الجليلة الرائعة ، وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب في الحياة  
سامعيك فتدعى القلوب وتبكي العيون . وحتى علمت وفصاحتك وجودك  
ولطفك لم تزل منها أثارة في جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول  
في رحابك .

وانتهت من أحلامي على دعوات الداعين وحفاوة المحتفين من أهل النجف  
الأشرف ، فخرجنا من حضرة أمير المؤمنين ، وما زلنا ننعم بلطف أهل النجف  
ونقتبس من علمهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

\*\*\*

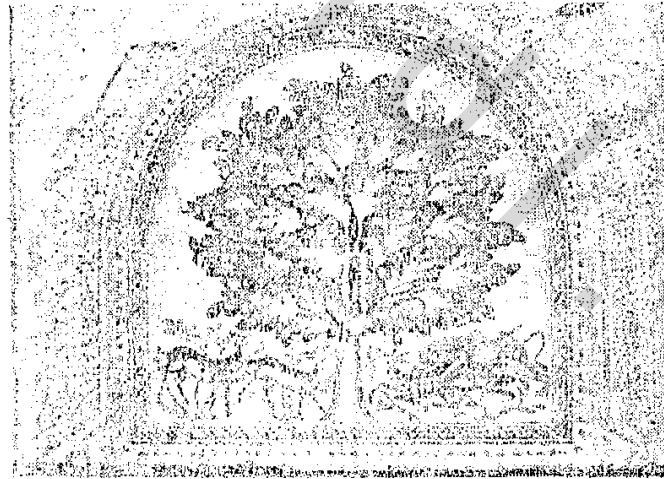
وانحدرنا في الصباح إلى السكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلناها

الدوائر فتلوت قوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين . »

\*\*\*

وبرحنا الكوفة زيد بغداد ، فلم نخرج في طريقنا إليها إلا على الحلة الفيحاء ،  
تلبية منا لدعوة فاضل من فضلائها أبي إلا أن نطعم من زاده ، ثم استأنفنا السفر  
فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كعهدنا بها : هائجة مأجحة ، ساحرة فاتنة ،  
فقلت لأصحابي : رجعنا إلى الدنيا ٢

بغداد في ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



# الأب لمانس<sup>(١)</sup>

## والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التي مرت بالمسلمين عقب وفاة النبي ، عليه السلام ، هي لا شك أدق ظرف مر بهم في تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عصبية ؛ ذلك بأنه في تلك الساعات المحدودة كانت الشريعة الإسلامية التي ظل الرسول -سنتين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار؛ كما كانت الوحدة السياسية التي قضى النبي طوال العصر المدني من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليتمكن لدعوته الدينية ، هي أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هي إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم إحدا أعاجيب التاريخ ومن دواعي حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هي التي عبرها المهاجرون والأنصار بسقيفة بني ساعدة بالمدينة والتي اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى انتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطي المعروف .

(١) الثقافة ٦ العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

وبعد فللأب لامانس المستشرق اليسوعي المعروف بسعة اطلاعه على آداب  
العصر الجاهلي وتاريخ العصر الإسلامي الأول نظرية<sup>(١)</sup> غريبة تتعلق بشكل  
الحكومة الإسلامية التي قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد  
الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثي  
Triumvira المعروف في التاريخ الروماني في طور الانتقال من الجمهورية إلى  
الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر  
وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة النبي على أن  
يحتسروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن  
اثنين من أزواج النبي ، هما عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم  
السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر  
وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونته صاحباؤه  
في الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفيء . فلما حضرت الوفاة  
أبا بكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشع أبا عبيدة للخلافة من بعده ،  
بأن ولاه القيادة العليا للجيش الشام . غير أن أبا عبيدة توفي في حياة عمر ،  
فخبط مشروع الحكم الثلاثي ، وكان من وراء ذلك أن يرجع المسلمون إلى  
الشورى التي حرموا منها في استخلاف أبي بكر وعمر ١١

ونحن مع احترامنا لعلم الأب لامانس وإطلاعه نقول إن نظريته هذه لا تقوم على أساس تاريخي متين .

أولا - لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القبيل ، فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العباسية ، لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامانس .

ثانيا - إن الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامانس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصماتهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية إبان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

ثالثا - إن الأب لامانس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لحظ صديقنا الدكتور السنهوري بك في كتابه ( الخلافة ) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التي نعلقها نحن . وليان هذه الأهمية ثبت نص الرواية كما ساقها ابن اسحق :

قال ابن اسحق : « قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : « إن رجلا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع

موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .  
وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم  
يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ  
مستجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول  
الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبي أنت وأمي ! أما الموتة التي كتب  
الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . قال ثم رد البردة على وجه  
رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر !  
أنصت ! فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع  
الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس  
من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ،  
قال ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات  
أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي  
الله الشاكرين » . قال فوالله لاسكن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى  
تلاها أبو بكر فإنما هي في أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : « فوالله  
ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعمرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحماني  
رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

فالقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهي  
تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن  
تكون مختلفة ، والمناسبة التي وردت في صددتها لا شك صحيحة .

إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر ، على رأى لامانس ، وعمر الزاهل لموت

الرسول كل هذا المذهول كما تدل الرواية المذكورة ؟

\*\*\*

وبعد فإن القول باثبات أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به  
روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكها التاريخي في مصادر  
الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان « لا أبا عبيدة كما يرى لا مانس ،  
قد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا  
الزعم من شعر السيد الحميري الذي يفيض مدحا لبني هاشم وذما للخلفاء الثلاثة  
الأوائل . روى صاحب الأغاني<sup>(١)</sup> قال : جلس المهدي يوما يعطي قرىشا صلات  
لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قریش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع  
رقعة مختومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| قل لابن عباس سمي محمد       | لا تعطين بني عدي درهما     |
| واحرم بني تميم بن مرة إنهم  | شر البرية أخيرا ومقصد ما   |
| إن تعظمهم لا يشكروا لك نعمة | ويكافئوك بأن تدم وتشتما    |
| وإن اتهمتهم أو استعملتهم    | خانوك واتخذوا خراجك مغنا   |
| ولئن منعهم لقد بدأوكم       | بالمع إذ ملكوا وكانوا أظما |
| منعوا تراث محمد أعمامه      | وبنييه وابنته عديلة مريما  |
| وتأمرؤا من غير أن يستخلفوا  | وكفي بما فعلوا هناك مأثما  |
| لم يشكروا لمحمد إنعامه      | أفيشكرون لغيره إن أنما ؟   |
| والله من عليهمو بمحمد       | وهدهام وكسا الجنوب وأطما   |
| ثم انبروا الوصيه ووليه      | بالمعكرات فجر عوره العلقما |

قال : وهى قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه . قال : فرجى بها إلى  
أبي عبيد الله ، ثم قال : اقطع العطاء ! فقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السيد  
إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئا .  
وقال الشهرستاني فى المال والنسل فى كلامه على المغيرة إسدى فرق خلافة  
الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سعيد المجلى كان يزعم أن أول ما خلق الله هو  
ظل محمد وعلى قبل ظلال السكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملن  
الأمانة ، وهى أن يمتن على بن أبى طالب من الإمامة ، فأبين ذلك ، ثم عرضها  
على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن  
يعينه على الغدر به . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه ، وأقدا  
على المنع متظاهرين ، فذلك قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا »<sup>(١)</sup>  
فالآب لامانس لم يزد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام  
الخلافة ، وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهى بعد  
وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الإطلاق ؟

---

(١) ابن حزم ج ٢ ، ص ١٤ .

# زياد بن أبي سفيان<sup>(١)</sup>

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسية ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك عالماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل أهل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار .

\*\*\*

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان علي المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كعدة المعروف بطبيب العرب . وتعلم في مكتب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن فزوان إلى الأبله وجنوبي العراق ليكون ردها لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتي زياد

(١) الثقافة .

فيمىن انتدب للخروج معه وكان هو الذى يقسم لهم الغنائم ، وأجرىوا عليه كل يوم درهمين . ثم ولى لسعد ديوانه فكان هو الذى يكتب الناس ويدونهم ، فلما فتحت جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبحث بالحساب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة فى الانسياع فى أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشئ وفصاحة لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : « هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به » . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ ، فلما كان الغد قام فى الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياع فى بلاد فارس ، فازداد عمر إعجابا به وقال : « هذا الخطيب المصقع » ولم يكن الإعجاب قاصرا على عمر ، بل لقد أعجب زياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : « لو كان هذا الفتى من قرىش لساق العرب بعصاه » . فيقال إن أبا سفيان همس فى أذنه بقوله إنه هو أبوه الذى ولده حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مضت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها زياد فيمىن نزلها من ثقيف ، وانخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولى عمر المغيرة بن شعبه على البصرة سنة ١٦ هـ ورى المغيرة بما رى به ، وهم عمر برجه لم ينجيه من الهلاك إلا شهادة شهد بها زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سببا فى درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانهقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبى موسى الأشعرى سنة ٢٣ ، كان بما احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ،

ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : « إني وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت إليه عملي » وقد قبل عمر قول أبي موسى متأثرا لاشك بالصورة التي كانت لزياد في ذهنه ، ولأنه أحب أن يتحقق بنفسه إلام صار أمر ذلك الشاب في مدى سبع سنوات ، فأمر أبا موسى أن يشخص إليه زيادا . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر . فلما خرج عمر وجد شابا حسن الهيئة ، له ذؤابة . وعليه ثياب بيض من ككتان ، فابتدره بقوله : ماهذه الثياب ؟ فأخبره زياد . فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشيء يسير ، وصدقته عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت في أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت بالثمان ربي عبيدا فأعتقته . قال الخليفة : وفقت اثم اختر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب في معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيها ، فردّه إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه . وكذلك لم تخب فراسة عمر في ذلك الشاب منذ رآه عند قدومه عليه بأخماس جلولاء لسبع سنوات خلت ، ولم تزد الأيام إلا ثقة به واطمئنانا إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة في قلب زيادا إكبارا وتجلة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذي يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زيادا ، فقام بأمرها في غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصّر في تلك الأيام .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبي طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشه وطلحة

والزبير ، لم يحرك زياد في تلك الفتن ساكناً ، ولم يخض فيها مع الخائضين ، ولا ألقى في نارها خطباً ، بل أعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفياً في بعض دور البصرة ينتظر عم تنجلى الأمور . ولم يكن أمر زياد خافياً على علي ، فإنه بعد أن ظهر بخصومه في وقعة الجمل سنة ٢٠ هـ وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو ابن أخي زياد لأمه ، مستأمناً مبايعاً ، قال له علي : وأين عمك المتربص المتقاعد بي ؟ . فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد . وإنه على مسرتك طريص ، ولكن بلخني أنه يشتكي ، أفأعلم لك عليه ثم آتيك ؟ وكنتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال علي : إمش أمامي فأهديني إليه ! ففعل . فلما دخل عليه قال : تقاعدت عني وتربصت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجع بيننا ! فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ... وسأ كفيه وأشير عليه . واقتربا على عبد الله بن عباس . إلا أن علياً ولي زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال علي إخلاصاً له ، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن انتهت حياة علي نفسه . ويتضح هذا الإخلاص في حادثين وقعوا في ذلك الوقت في أهم النواحي التابعة لعلي ، في البصرة وفارس ، وهما بينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبي بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على علي خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودهم زيادا غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم ، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضرمي ناعياً مقتل عثمان ومحركاً لأهل البصرة على علي . ونظر زياد فوجد  
نفسه في قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأي والحيلة  
ولما كان ابن الحضرمي قد نزل في بني تميم فإن زياداً أسرع فنزل ومعه الأموال  
في قبيلة الأزد المعادية هي وحليفاتها بكر بن وائل لقيم . وكان لنزوله في الأزد  
معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالنزود عنه كأننا  
ما كان الأمر . وكتب زياد إلى علي يخبره بالحال ويستمدده . فصوب علي  
رأيه وأنفذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدي النيمى . وقد استطاع جارية  
أن يرد قومه عن متابعة ابن الحضرمي ثم سار إلى ابن الحضرمي فقتل عليه وعلى  
أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحوادث الآخر فخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على علي طمع  
الفرس في استعادة استقلالهم ، فنهضوا الخراج واضطربت فارس ناراً . فأشار  
ابن عباس على علي أن يولى زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبري : «ولما  
قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوماً وتوعدهم ،  
وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت  
طائفة فقتل بعضهم بعضاً . وصفت له فارس ، فلم يبق فيها جمعاً ولا حرباً وفعل مثل  
ذلك ببكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار في كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك  
فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى  
قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى  
أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي .  
والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال لمجرد التحصن

ففيها من المعجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرى فوق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثاقب ذهنة وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين علي ومعاوية منته لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى في الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً في إحفاظ معاوية بأخذه جانب علي ، وهذا إلى مضاضة كان يحسها في قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن في مكانه الحريز وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو في حصنه ويساومه مساومة الند لند ولا ينزل إليه إلا على شروط يملئها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له ببال ، ففي عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأصبح زياد ومعاوية في حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعادين عداً غريباً . كلاهما لم يعتمد جنائية على الآخر ، ومع ذلك فمساافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء وأوسعها حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادى بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل علي إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض في الوقت نفسه بولادة أبي سفيان له . فلم يسمع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام في الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ، كذب إلى يهودى ويبنى وبينه ابننا عم رسول الله في تسعين ألفاً وانحنى سيوفهم على عواتقهم لا ينتنون ، لن نخلص إلى الأمر ليجدنى أحمر ضراباً بالسيف . وكذلك أعرض زياد ونأى بحسابه معللاً نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن علي وعبد الله بن

عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القلعة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ .

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية ، وقدم معاوية السكوفة لينهى أمر العراق والمشرق جميعاً ، ونحلاً ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . أوعاد معاوية يجاذب زيادا الحبل ولكن في غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابية . فلم يسمع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بسر بن أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكابر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبه ، عامله على السكوفة ، بالشنخوص إلى البصرة واستتصفاة أموال زياد التي كانت في يد عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أداؤها . ولكن زياداً لم تلن قناته إزاء هذا الجذ من معاوية في أمره . وهم بسر بأن يقتل أبناء زياد فعلاً لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكر ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدها زياد في حادث المغيرة . فقد شفع في أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بسر بأن يخلى سبيلهم . واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعاً . وبينما الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومئة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبه . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالسكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح  
فإذا بحت بسر فإلى ناصح يكتمه أو لاتبع

فقال : يا أمير المؤمنين ! إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً ، ورعاً وثيقاً ، فما ذاك ؟ . قال : قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس واستنصاعه بها ، فلم أنم ليلتي ، فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال : ما زياد هناك ! فقال معاوية : داهية العرب ، معه الأموال ، متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل . ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة ؟ قال المغيرة . أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ؟ . قال : نعم ! فأته وتلطف له ! . فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر ، وأن الأولى له أن يصل حبله بحبل معاوية . وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم ، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية .

قدم زياد على معاوية بدمشق في سنة ٤٣ ، ورفع إليه حساب فارس ، فأحسن معاوية لقاءه وصادق كل ما قال ، ثم أنزله الكوفة كما طلب . إلا أنه لم يركن إليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأن يأخذ زيادا ورؤوس أصحاب على الكوفة ، كحجر بن عدي السكندی وعمرو بن الحلق بحضور صلاة الجماعة ، فكانوا يصلونها معه .

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف في أمر زياد عند هذا الحد . لقد أراد أن يستخلصه ويحتذبه إلى جانبه جملة ، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفائته ومواهبه العظيمة . ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من المضاضة ، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهمس به الناس من نسبة زياد إلى أبي سفيان . وتفصيل ذلك أن زيادا كان حتى ذلك الوقت لا يعرف له أب على التعيين ، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد ، وهو عبد رومي كان للحارث بن كعدة ، وبعضهم ينسبه إلى أبي سفيان ، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أيا كان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض في النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة في ذلك الزمان وسعة أفقها . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبي سفيان الذي سبقته الإشارة إليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببذوة زياد لأبي سفيان ، وأعلن في الآفاق أن زيادا أخوه لأبيه . ولقد أثار معاوية بعمله هذا دهشة الرأي العام ، وامتعض بنى أمية ، وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقدموا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذي قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد في هذه المسألة التي وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبي سفيان ، حكم الإسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم في الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحاً . فكان لمعاوية في الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسي يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها في إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشلت القالة واشتد التكبر عليه ، قام في الناس فقال : « أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وإني لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقاً فوضعت موضعه » ألا إن يكن معاوية قد أظهر في هذه المسألة شيئاً ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدي العباسي الذي أمر في سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردمهم إلى ثقيف ؟

# زياد بن أبي سفيان<sup>(١)</sup>

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا في سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التي رأى معاوية أن ينتفع فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلالا كبيرا ، فكثرت في نواحيها حيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت في البلد نفسه الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثرت الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة تعصب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاهم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأعصبت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والإدارة يضع الأمور في مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصير إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه في سنة ٤٤ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الآلة وما إليها .

رأى زياد أن الحال تقتضي حزما وعزما وشدة في بعض المواطن وصرامة ، ولكنه جهد في أن يعمل بالسياسة العمرية القديمة ، سياسة الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حرفيا دقيقا في حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب في نفوس المفسدين ، وقد وضع سياسته برنامجا

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

أعلنه في خطبته البتراء التي خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله  
البصرة . فقد أعلن عزمه على هدم المواخير ودور الفساد ، فقال : « ما هذه  
المواخير المنصوبة ، والضعيفة المساوية في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ حرام  
على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً » . ونهى عن دجل  
الليل نهياً باتاً ضرباً على أيدي المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك في  
قوله : « وإياي ودجل الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن  
دعوى الجاهلية منعاً لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإياي ودعوى  
الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » ؛ وأعلن تضامن الناس  
في حفظ النظام : « وإن أقسم بالله لأخذن الولي بالمولي ، والمقيم بالظاعن  
والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لي قنائكم » . إلا أن  
زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سيكن خواطر  
الصلحاء وجهد في استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسناً فليزدد إحساناً ، ومن  
كان مسيئاً فلينزع عن إساءته » ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا  
أنى مهما قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجياً عن طالب حاجة  
منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة ، ولا مجمرأ  
لكم بعثاً . أيها الناس . . عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولستم علينا العدل  
فيما ولينا » .

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا  
في حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً في سفك  
الدماء ، فاستقامت أمور البصرة ؛ ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها  
فاستكنى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فأكسر بذلك شرة تلك الفرقة العاتية ،

وعم الآمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : « لو فقد جبل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه » .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفي المخيرة بن شعبة في سنة ٥٠ هـ لم يتردد معاوية في ضم إمارة السكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالسكوفة آنياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج وتعمد القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا في لعن علي على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحيم على أبي تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطراً جوهرياً على حكمه فأمر المخيرة ابن شعبة بمراقبتهم .

وكان المخيرة بن شعبة في أخريات حياته رجلاً رقيقاً وليناً وإشاراً للعافية ، فكان يكتفي من الشيعة بالإخلاص إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعهم بعد ذلك يقولون ما شاءوا . فلما أسندت ولاية السكوفة إلى زياد قدمها ، وشد الوطأة على رؤساء الشيعة : حجر بن عدى وأصحابه ، وطوى ما بينه وبينهم من صداقة قديمة ، إشاراً منه على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التي يخدمها . ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحيم على علي ، قبض على حجر بن عدى وبضعة عشر رجلاً كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من وجوه أهل السكوفة على أن حجراً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسي المحنك في الأمر ويضيق بهؤلاء نفر حمله المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم حجر بن عدى ، قتلوا صبراً . بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهدأت أحوال السكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : إني قد ضبطت العراق بشمالى ويمينى فارغسة ، يعرض برغبته فى أن تضم إليه اليمامة ، لا الحجاز كما ورد فى بعض الروايات . فضم إليه معاوية اليمامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفى فى رمضان عام ٥٣ هـ . ودفن بالثوية بظاهر السكوفة .

\*\*\*

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسياً حازماً يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، ويلبس لكل حال لبوسها ، ويدأوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ويحب سماع الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه .

وأياً ما كانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عند ما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر جد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط الخطوة الأخيرة فى هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق فى أمر ذلك السياسى الذى عاش فى أيام فتن واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فثم روايات تصور زياداً طائش السيف ، سفكاً للدماء بغير حق ، فنزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أيدي ثمانين أو ثلاثين رجلا حصصوه وهو على المنبر بالسكوفة ، وأنه دفن رجلا  
من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة ، لأنها صادرة عن رواة  
الشيعة المنحرفين عن بني أمية ، ومؤرخي بني العباس الذين قضوا على الدولة  
الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة  
المهديين عمر وعثمان وعلي ، وثقة عمالهم سعد وأبي موسى وابن عامر وابن  
عباس ، وإعجاب الفرس وولاهم ، ثم ينقلب بمجرد وضعه يده في يد معاوية  
سفاكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والانتحال أو المبالغة على أقل تقدير  
واضح في تلك الروايات من غير مرأه .

\*\*\*

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به في  
ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة  
الإدارة أثناء عمله بفارس الإمام علي ، وذلك بمعاشرته الدهاقين وسماعه أخبار  
الأكاسرة الأولين . عني بعمارة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن  
الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم في  
ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية  
الرى بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهير معقل ونهر الأبله ونهر ديبس ،  
وأكثر من الأقطاع وإحياء الموات . قال المحدثي : « وكان يقطع الرجل  
القطيعة ويدعه سنتين ، فإن عمرها وإلا أخذها منه » .

وقد عمر العراق لعهد عمارة عظيمة . روى البلاذري أن جبابة كور البصرة  
على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة  
آلاف ألف فقط ، وينفق الباقي في أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور السكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثي ما يرسل إليه من جباية البصرة ، وينفق ما تبقى في مختلف شئون السكوفة .

وعنى بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة الجمهور في ذلك . قال المدائني : « غلا الطعام على عهد زياد ، فدفع إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاما ، وقال زيدوا ربما ربعا ، فلما رخص الطعام ارتجع ماله » . وربما تنسكروا ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان يوقع العقوبة الموجهة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزانا .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة في زمنه ثمانين ألفا ، ومقاتلة السكوفة ستين ألفا . وجعل جند البصرة أخماسا ، وجند السكوفة أرباعا ، مازجا بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها ، ويضعف من تعصب بعضها على بعض . وولى على كل خمس أو ربع رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين ألفا من عرب المصريين ، وجعلهم أرباعا على نظام جند السكوفة ، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالتهم تصرف إليهم من دار الرزق في مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ما كان ذلك في المحرم ورمضان .

روى البلاذري أن زيادا سأل أحد جلسائه فقال : أأنت تعلم أن الأسواق قائمة وأن الأعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم ؟ قال : بلى ! قال : لله الحمد ! لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا .

وكان لزياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وحس للنظافة العامة ، بنى بالبصرة دار الإمارة ؛ وهدم مسجدها ، وكان من القصب ؛ ثم وسعه وبناء بالآجر والبصير وسقفه بالساج ؛ ونقل أساطينه من جبل الأهواز ؛ وأنشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أترون خللا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بلى ! هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود ؛ لو كانت أغلظ من سائر الأساطين : قالوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت في فخامة بناء ذلك المسجد :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين  
لولا تعاور أيدي الإنس ترفعها إذا لقلنا من أعمال الشياطين  
وكذلك وسع مسجد السكوفة وأخذ به مقصورة ، وفرش عهده وصحن  
مسجد البصرة بالحصباء حتى لا تترب أيدي المصلين .

وقال المدائني . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصبحت برقع ما بين يدي فنائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقى في محلته . ويأخذ الناس بتنظيف طرقتهم من القدر والكناسات ؛ ثم انه اشترى عميدا ووكلمهم بذلك . وكان زياد يعنى بمظهره الرسمي للخاصة والعامة على السواء . كان يشتهر بالبصرة ويصيف بالسكوفة ؛ وكان له مجلس يحضره أشرف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على السكراسي ؛ وهو أول من جلس بين يديه على السكراسي ، وكان لا يطعم وحده ولسكن مع الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يغذى الناس ويعشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان يعيشهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلما أراد ذلك ، وكانت إذا برز من دار الأمانة ففي موكب تخم يسار بين يديه بالحرايب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

\*\*\*

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة : كان زياد في صباه حسن الهيئة ، حسن الثياب ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه في أواخر حياته فقال : رأيت فيه حمرة ، وفي عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قميص مرقوع . وقد أجمع الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغاً ومحدثاً لبق الحديث . قال الشعبي : « ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحببت أن يسكت مخافة أن ينقطع ، إلا زياداً فإنه لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن » . وكان أباً باراً ببنااته وأبنائه الكثيرين ، وصديقاً وفيّاً لم يخل بصداقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغداني الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ما عرف به بدر من معاقرة الشراب . وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدي فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة في حياته الخاصة ، زاهداً في الدنيا غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن زياداً لم يكن من القراء ولا الفقهاء . ولم يكن كان يعد في الزهاد . وقال الأصمعي : مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنة ، ولم يغرس شجرة . يريد أنه لم يختص نفسه ببنااء ولا زرع تعقفاً وزهداً . وكان يقول : أغبط الناس حالاً رجل له دار لا يجرى عليه كراؤها وزوجة صالحة قد رضيت به ، فهما راضيان بعيشهما ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر  
ابن حارثة :

صلى الإله على قبر وطهره      عند الثوية يسقى فوقه المور  
أدت إليه قریش نعش سيدهما      فثم كل النسي والبر مقبور  
أبا المغيرة والدنيا مغيرة      وإن من غر بالدنيا لمخزور  
قد كان عندك للمعروف معرفة      وكان عندك للشكراء تنكير  
ولا تلين إذا عوسرت معتسرا      وكل أمرك ما يوسرت تيسير  
لم يعرف الناس مذ كفنت سيدهم      ولم يحل ظلاماً عنهم نور  
والناس بعدك قد خفت حلومهم      كأنما نفخت فيها الأعاصير  
قد يقال تلك زفرة صديق محزون      لفراق صديقه ، ولكن العواطف  
النبيلة ، لا يهيجها عادة إلا ما هو نبيل حقاً .



## محمد بن القاسم الثقفي<sup>(١)</sup>

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية قنّش في ثنايا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتي الشهيد والفاتح العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفي ، الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليوناً من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى فتاة السن حكمة الكهولة ، وإلى خشونة الجندي رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم . وكل صفات اتصف بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي رجّت العالم القديم فنهضته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديداً ! وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، فهو من ثقيف المشهورة في الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة ، ثم هو بن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري . يلتقي نسبهما في الحكم بن أبي عقيل . ولد في سنة ٧٣ هـ ، ونقع الحوادث مشار ، وريح الفتن نسكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها في فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجعل غلامنا يتنفس في جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعاً وعياناً ، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

(١) الثقافة ٤ العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة مادية هي: حياة الأدب الذي يتمثل في الشعر الغنائى الرقيق المأثور عن ابن أبي ربيعة ، وجميل ، وكثير ، والبيروى وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فعشما نظر الفقى الثقفى الحائر إلى ذلك النور المشرق . فجاءه واهتدى به ، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وارتنوى منه ، وبذلك اعتدل مزاجه ، ورقت حواشى نفسه ، وأصبح وهو فى السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفى فى زمانه كما يقول صاحب الأغانى ، وأقبل الحجاج ، وهو هو فى نقد الرجال وتمييز الكفايات ، يعتقد به أمالاً كبيراً ، ويرشحه على حادثة سنة للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

\*\*\*

لم يكد ينتصف العقد التاسع من للقرن الأول الهجرى حتى كانت الفتن التى صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد رككت ريجها ، فانتهدت ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة الهوجاء التى أثارها ابن الأشعث بالعراق . هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها ، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب ، وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام ، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التى هى مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات ، والذي يسمى بلاد الهند .

الحق أن الحجاج لم يتذكر سياسة غزو الهند ، فقد عرف هذه البلاد عرب شرق الجزيرة منذ الجاهلية ، وطالما ركبوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجاراً .

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا في غزوها وتمسكها : يروى صاحب فتوح البلدان « إن عمر بن الخطاب ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وثمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان » فأقطع جيشا إلى تانة ( قريب من موقع بومباي الحاضرة ) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه . فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دودا على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم . » وتتابع غارات عرب البحرين من عبد القيس وغيرها على شواطئ الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التي كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الساقوت » لحسن وجوه نسائها ، فمن هؤلاء العرب من أفلح في المقام بها ، ومنهم من عاد إلى بلاده لهملء يديه السبي الرائع والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد هاجرت منهم في الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسي وخضعت للدولة الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .

فلما كان زمن الخجاج أغزى عماله على مكران نهر السند ، فكلهم كان ينسكب أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم ، تنزلها قبائل عديدة قوية تذكّر منها الرط والسيابجة والميد والبرهه . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة في أخصام الأودية ورموس الجبال . منها الديبل ، وكانت نهر السند قبل كراتشي الحاضرة وبرهمنا باز وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمعابدها البوذية القديمة وخاصة معبد الملتان . قال البلاذري « وكان بد الملتان تهدي إليه الأموال ، وتندر له الذنور ، ويحج إليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رموسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي ﷺ . » أما الناحية السياسية فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعي الكلمة مختلفي الآهواء .

وكان أقراهم سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، فهو الذي أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجسد في قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها ، وعلى نسوة عربيات كن معهن ، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة اليساقوت فيما يروى البلاذري ، أراد التقرب من الحجاج ، فأهدى إليه نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آبائهن وكانوا تجارا . فعرض للسفينة التي كن فيها قراصين من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهم من بنى يربوع : يا حجاج ! بلغ الحجاج ذلك ، فقال لبيك ! وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخليته النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لا قدرة له عليهم . فأغرى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند ، فكلاهما قتل . فاحتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الري فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر . فرده عن غزو الري وعقد له على مكران وثغر السند ، وأمره أن يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التي أخذ يعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول ، أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جنود الشام الذين كانوا عدة الدولة الأموية ومعولها والذين وطأوا الأمويين أكتاف ملوكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة . ومن هذه خمس مجانيق ضخام ، يقال لأكبرها ( العروس ) . ويروى البلاذري أنه كان يمد فيها خمسمائة رجل . وبالف الحجاج على عادته في إعداد الجيش حتى

أنه . . . . . جهزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن المحلوج فنقع في الخل الخمر الحاذق ثم جفف في الظل ، فقال إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن . ثم اطبخوا به واصطبغوا ، ، ثم تقدم إلى محمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

\*\*\*

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٩٠ هـ ، فسار مشرقا متبعاً ساحل البحر يطوى الحزون والسهول ، ويجوب المهامه والقفار ، ويحدوه ما يحدو الشباب الحى من حب للمجد وتعلق بأسباب المعالي ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالماً . ولم يكذب يحط رساله حتى كان الأسطول قد وافاه بها . فشرع من فوره فى مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان : « تقدم الديبل يوم جمعة ، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فخذق حين نزل الديبل ، وركزت الرماح على الخندق ، ونشرت الأعلام ، وأنزل الناس على راياتهم ، ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل « بد » عظيم عليه دقل طويل ، وعلى الدقل ( سهم السفينة ) راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور . . . . . وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة ما قبضه واستطلاع رأيه فيما يعمل به فى كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، ولتكن مما يلي المشرق ، ثم ادع صاحبها ، فره أن يقصد برميته الدقل الذى وهدفت لى ، فرمى الدقل فمكسر ، فاشتد طرة ( جزع ) الكفر من ذلك . ثم إن محمداً ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم ، وأمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال . . . . . ففتحت عنوة . . . . . وهرب عامل داهر عنها . . . . . واختط محمد المسلمين بها ، وبني

مسجداً، وأنزلها أربعة آلاف ، ثم سار محمد مصعباً مع النهر يريد داهراً، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحاً . وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط ، وصار كثير من قبائل السند عوناً له في حربه مع داهر . ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه . وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمدًا وجيشه بقتلك ذريع . ولكن محمدًا اتقى شر الفيلة بقذائف النبط الملهب يرميها بها ، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند . وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهمناباذ . واقتنى محمد أثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهمناباذ نفسها ، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور فحاصرها أشهراً ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدنهم ، وأن يؤدوا إليه الخراج . وقد وفى لهم بشرطهم وبني بالمدينة مسجداً . ثم قطع نهر بياس إلى الملتان ، أعظم بلدان السند العليا ، فامتنعت عليه أول الأمر ، ثم استولى عليها بممالة رجل من أهلها له . ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذي .

كانت الملتان أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال ، قال البلاذري : « ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف ، فقال : شفيننا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر » .

أخذت الملتان سنة ٩٥ هـ . وعلى أثر ذلك أتت محمدًا وفاة الحجاج فقفل راجعاً نحو الجنوب مستولياً في طريقه على مدن ملوك آخرين غير داهر . وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها ( السكيرج ) استولى عليها عنوة سنة ٩٦ هـ . ثم أتاه نعي الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان ، فلم يبرح تلك المدينة .

وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، وأخذ نجمه في الأفول .

\*\*\*

لا شك أن الحجاج كان موفقا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فإن محمدا بمحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه . فلا نسمع أن أحدا منهم حدثته نفسه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حله اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن أعطاه الطاعة وأخذ جانبه في الحرب كما سبق القول . ويروى إنه عندما شرط عليه أهل مدينة الراور ألا يقرب بهم وفي لهم بذلك وقال : « ما البد إلا ككنائس انصارى واليهود وبيوت نيران المجوس ، . » وكانت حكومته إياهم عادلة رفيقة إذا قيست بحكومة ملوكهم وأمراءهم ، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تحتلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد . ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن ينشر في البلدان التي فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين . من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن أجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق . فأنزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأنزلهم أنطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية في قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلانة سميت ببعضها مشرعة الفيل التي كانت بواسطة .

كما بعث إليه أول جزء بآلاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها في آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها في  
الآجام التي بين أنطاكية والمصيصة ، واتفق بها سبع تلك الآجام وكانت قد  
كثرت وأضافت السابقة . وقد نمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى  
أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . إنها لا شك تذكرنا بغزو الاسكندر  
المقدوني لتلك البلاد نفسها في أخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان  
تشابهان من عدة وجوه : تشابهان من حيث أن كليهما برية بحرية إلى حد بعيد ،  
ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفائته ، ومن حيث أن كليهما نهج في نشر ثقافته  
بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى  
أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطاعا رأيه ، فالفاتح المقدوني كان  
يهدى إلى أرسطو ويراسله ، والفاتح العربي كان يهدى إلى الحجاج ويراسله مهذرا  
في بعض المواقف عن رأيه . ولر أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم  
والذين قد يكون منهم من يدين بشريعة التماسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فرما  
رأوا في الفاتح العربي الحديث انبعاث روح الفاتح المقدوني القديم .

\*\*\*

وبعد فماذا كان مهير ذلك الفاتح العظيم ؟ لقد جوزى جزاء سنه ، وصار إلى  
شر مهير ، فقد نسكه الخليفة سليمان بن عبد الملك نسكة كان فيها تلف مهجته  
وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة في تحليل تلك النسكة : فالمصادر الفارسية ،  
وهي حديثة نسبيا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن  
ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا ، وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ،  
ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق . فلما بلغ بنات

داهر مصرع الفتي استشعرن الندم وقلن إنهن تجنبن على ابن القاسم ، انتقاما ممن قتل أباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمر بهن فقتلن شر قتلة : أما المصادر العربية ، وهي أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية العهد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفي غيظه من أقربائه ، متأثرا في ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد أذكى نار الحقد والموجدة في صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب ، وكان أثيرا مكينا لدى الخليفة ، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق .

عزل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي ، فأخذ محمدًا وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بني المهلب على حال حركت قلوب أهل السند ، فبسكوا عليه وصوره أهل السكبرج بمدىنتهم التي كان منها شخوصه . وقد تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ، ولم يكن في محنته أقل شجاعة وصبرا وأنفة منه وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند عليه لم تحدثه نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه . وقد جعل يسرى عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لشق على أعدائه تهضمه :

ولو كنت أجمعت القرار لو طئت      أناث أعدت للوغى وذكور  
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا      ولا كان من عك على أمير

ولا كنت للعبد المزوني تابعا      فيالك دهر بالكرام عثورا  
ولما صار إلى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال :  
فلئن ثويت بواسط وبأرضها      رهن الحديد مكبلا مغلولاً  
فلرب قينة فارس قد رعتها      ولرب قرن قد تركت قتيلاً  
وعذبه صالح في رجال من أقرباء الخيلاج حتى قتلهم ، فطلق الشمره  
يرثون محمداً ويذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :

إن المروءة والسماحة والندى      لمحمد بن القاسم بن محمد  
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة      ياقرب ذلك سؤدا من مولد  
وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة      ولداته عن ذاك في أشغال  
تلك خاتمة قتي فتیان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمي  
الأرض عامة والهند خاصة أن الدوحة الإسلامية العالمية التي أظلت بلاد الهند  
طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك الفتى العربي النبيل ؟ فليذكر  
ذلك الذاكرون فقد تبل الذكري رفات ذلك الشهيد في قبره ، بعد أن عدم في  
حياته من محمد بلاه أو يرحم شبابه ؟

# عمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup>

٦٣ - ١٠١ هـ

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن  
الفلاسفة كانوا ملوكا ، إذن لاقرنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت  
مطرد . وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنساني ، ولاستحالة عالمنا المضطرب  
جنة راضية ونعيم مقيم .

وكثيرا ما كتب الحكماء في نظم عامة ابتدعتها أخیلتهم وزعموها توفر على  
الناس في هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتنفي عنهم الألم والشقاوة : فعل ذلك  
أفلاطون في « الجمهورية » ، والفارابي في « أهل المدينة الفاضلة » ، وتوماس مور في  
« أوطوبيا » ، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .  
هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد في التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ، وذلك على  
عهد الخليفة العربي المسلم : عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل ألقت إليه المقادير بزمام  
أعظم دولة في الأرض في زمنه ، ومع ذلك استطاع أن يقنع شهوته حتى كاد  
يميتها ، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لإصلاح  
رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا .  
وفوق هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع  
شعوب الأرض طرا في نظام واحد يقوم على مبادئ الأخوة والعدالة والمساواة .

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، السنة الأولى ، ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣ .

وقد وفق ابن عبد العزيز في هذا المطمع البعيد توفيقاً حاد من مقداره، بالأسف،  
أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعة العمر وعنفوان الحياة .

\*\*\*

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملاً الوراثة والبيئة مما .  
فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاله  
بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب . وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي  
الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخبير بانتهاز الفرص عند إمكانها .  
وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى  
بانتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريفاً بسبب من أسباب وريثه وجراته في  
الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد  
ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام  
٦٥ هـ حمل إليه ، ولبت بمصر زمناً ما ، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار  
الحضارة المصرية والبيزنطية . وهنا رحت دابة فشج شجته التي عرف من أجملها  
بأشج بني أمية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ  
نشأة إسلامية مدنية ، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف  
فيها من يحملها الروح الديني الصحيح ماثلاً في نفر من بقايا الصحابة وكبار  
التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله  
بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ، ممثلاً في  
مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي ، وطائفة من المغنين  
والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبي السميع المغنيان المدنيان الشمران . ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطناً للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية في هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، واقف صناعة الغنم وأعاناه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافاً كبيراً . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز قتي مليح الخلقة ناعماً مترفاً كمعادة فتيان بني أمية . يروى أنه أبطأ يوماً عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : « كانت مرجلتى تسكن شعري » فسكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره .

\*\*\*

في عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه « خنصرة » وهي بليدة من أعمال حلب واخلّة في البادية . فلبث والياً عليها سنتين كانتا من أنعم سني حياته وحياة زوجته . وقد أعجبه خنصرة حتى أنه عندما استخاف اتخذها منزلاً على عادة ملوك بني أمية في إيتارهم سكنى البادية على الحاضرة . وفي عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلاً من هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميراً على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣ هـ) حكومة شورية

أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقسداً غير قليل من الحرص على الترف  
والتنعم . فلأول قدومه المدينة اصطحب عشرة من العلماء اتخذهم نصحاء ومستشارين  
يصدر في الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الحجاز : فهدم المسجد  
النبوى وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار  
فتيسر بذلك الماء في ذلك القطر الظمى ، كما أنه عمل بالمدينة فورة يستقي منها  
أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة سنة ٩١ هـ وأمر  
للفورة بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك .  
ومن مظاهر بساطة عمر في إمارته بالحجاز أنه جلس يرتل القرآن بصوته  
العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم  
ير عمر بأساً بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة  
استخفه الطرب عند ما سمع بجارية تغنى حتى أخرجته من وقاره ، فعزله عمر .  
ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسمع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو  
أيضاً يستخف . فعذر القاضى ورده إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر  
المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعوا أمرهم إلى عمر  
فأخرجه من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بممدح أو بهجو . أما من  
حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترفاً مسرفاً في الترف ، يرخي  
شعره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئاة الدنانير ، ويكثر من  
الطيب حتى لتقصف ريحه إذا مشى مشيته « العمرية » ، وهى مشية كان يتبخر فيها  
ويختال ، ولملاحظها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك مصرع  
خبيب بن عبد الله بن الزبير؛ فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه .

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جرح عمر لذلك جرحا شديدا ، ويقولون إنه لبس المسوح سبعين يوما حسدا على خبيب ، ثم ألقه عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب إلى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدهم قال : « وكيف بخبيب ! »

وعدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقتل . ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يحيرهم ويحميمهم . ثم لم يكتف بذلك : فكتب إلى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . فاضطختها الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يحير « مراق » العراق وأن ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة في الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج في هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز . والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز بأمرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجاه من الحجاز إلى الحجاج كل عراقي في الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازي أنزل عراقياً أو آجره دارا .

\*\*\*

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد سمعه أن عزل عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة

تنتفى خبيثتها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالفرار من وجه الوليد والتاس  
الأجر والسلوة . فلما توفي الوليد عام ٥٩٦ هـ وولى سليمان بن عبد الملك ابنه عمر  
وكان أثيرا عنده يستشير به سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور . على أن  
عمر نفعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك في السنوات  
الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٩٩ هـ) إلى النظر في حال الدولة  
العربية في أواخر القرن الأول الهجري .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أبعثت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت  
لها قديما ، وأسرفت في الاصطباغ بالصيغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة  
عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان ؟ أليست حكومة  
سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المتهوّم ؟ لقد أصبح السلطان يعتمد في شد  
أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيوف المرفف . أما العدل وأما الرفق  
وأما الرحمة : فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فإذا أحوال الدولة قد  
عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحالت  
ملكاً خاصاً لبني أمية ، وأكثر الضرائب يجهى من غير وجوهه ، ويصرف في  
غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد  
استحالت أرضاً عشيرة يملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي  
مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموالى أو مسلمى الأعاجم لا يزالون  
مع إسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا في إسلامهم  
معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوهم منها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكونوا  
والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم  
عطاء . ثم إن عدم إنفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمساكين والمرضى والزمى من جعل لهم الشرع حقا في الصدقات العامة . ثم  
نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعت في الفرق المتباغضة  
والأحزاب المتناحرة ، فمن شيعية يطوون الصدور على الإحن لما نالهم به  
بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم  
وإحلال نظامهم محله ، ومن موال قد ساءهم ألا يسوى بينهم وبين العرب في  
الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ  
السياسي من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه . هذا في الداخل  
أما في الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذي شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم  
لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذي كان على عهد الشيخين ضرورة  
اقتصادية ملحة ، قد استحال في زمن الأمويين أداة للتوسع في السلطان . وجر  
المفهم الوافر ، والسعي الرائع ، حتى قال الشاعر :

الأذهب الغزو المقرب للنفي ومات الندى والجود بعد الملهب  
نظر عمر في كل ذلك فردّه إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة  
الإسلامية عن الأساس الذي قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو  
الدين المتصل بالحياة العامة يمدّها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون  
الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذي أثره في الحاكم شعور قوى  
بالمسؤولية وعمل صادق على إسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذي أثره في المحكومين  
اقتضاء للعدل إذا حرموه ، وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما . الدين  
عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

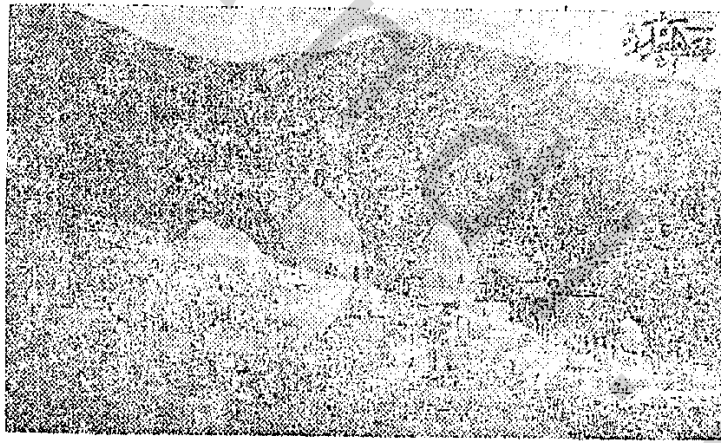
وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا عليها إذا به في  
الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفساني عنيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والتنعم يضمف رويداً رويداً ، وميسله إلى الزهد والتنسك يقوى شيئاً فشيئاً ،  
وأصبحت نظراته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئاً بجانب  
طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم التفكير في الموت وفيما بعد الموت :  
فالموت آت لا ريب فيه ؛ والموت برزخ مؤدٍ إما إلى جنة وإما إلى نار ، والمنتهى  
على كل حال رهين بما يسكون عليه المرء في العدوة الدنيا من ذلك البرزخ  
الرهيب .

ماسر هذا التطور العجيب الذى جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف  
ناسكاً زاهداً متصرفاً ؟ تتبين ذلك السر في نفسية ابن عبد العزيز من جهة ، وفي  
مقدار تأثره بالحياة الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى . لقد كان في  
عمر نزوع طبعى إلى الزهد ، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب ، وكان في  
طفولته يحارل التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ، ولما تورط في أمر خبيب  
لبس المسوح سبعين يوماً يأساً من غضارة العيش ، ولذاذة الحياة ، فلما نصح  
بالإقلاع عن ذلك أقبل . ثم إن الحياة الإسلامية قد أملت بها في أواخر القرن  
الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل للمادية التى طغت عليها إذ ذاك : هذه النزعة  
التي تحوالت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة تتبينها في طبقة العباد والنسك التى  
يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلاً . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو  
في المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة . فلما  
صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علماً وزهداً  
وورعاً : هذان هما الحسن البصرى ورجاء بن حيوة السكندى . أما الحسن فقد  
اتصل به عمر من طريق المراسلة ، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى ينسب إلى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك  
وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقرب به اتصالاً .

وبعد، فلئن كان النظر في الأحوال العامة قد أنتج لعمر ضرورة الرجوع إلى  
الدين في إصلاح غيره ، فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل  
عصره ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان  
هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام  
يرشحونه للخلافة .



## عمر بن عبد العزيز

(٢)

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية . ولكن ذبوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت إليه نظر أولى الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندي وابن شهاب الزهري ومكحول الشامي ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذي مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك . ثم أمر فأخذت البيعة من بني أمية لمن سمي في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعان الأمر إلى بني أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم ( ٢٠ صفر سنة ٥٩٩ هـ ) .

شرع عمر في تنفيذ برنامج الإصلاح منذ تم له الأمر . ولقد كان له من زهده ومناصرة العلماء له ومواتاة أهل بيته : زوجته فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلاً فيه فجرده من كل مظاهر الأبهة وردّه إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت إليه المراكب ، فقال ما هذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي ، فتركها وخرج يلتمس بغلته » ، وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين ، ونصبت له مرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

للخلفاء أول ما يلون ، فقال ماهذه ، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي ، قال يامزاحم ! ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط ويفرش للخلفاء أول ما يلون فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصى . ثم قال يامزاحم ! ضم هذه لأموال المسلمين .

« وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون ما لم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، وما لم يمس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هذا ؟ ... ما هذا ولا لسليمان ولا لكم ، ولكن يامزاحم ! ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهي الجوارى نعرضن ، فعسى أن يكون ما نريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدى . فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت ؟ ولمن جئت ؟ ومن بعثك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهلن وبحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق » .

ثم عمد إلى النظام الإقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج ، عزل يزيد بن المهلب وحبس في مال كان للدولة في ذمته ، ونفى نفر من بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جددًا لم يحفل في تخييرهم بعصبياتهم ولا

بقدرتهم على جمع الأموال، كما كانت الحال من قبل، ولما كن يحسن سيرتهم وطهارة  
ذمتهم، فكان من عماله: عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة، وعبد الحميد بن  
عبد الرحمن القرشى والى السكوفة، وعبد الرحمن بن نعيم القشيري أمير خراسان،  
وأبو بكر بن حزم أمير المدينة، والسمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس.  
وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول، فجعل الحسن البصري على قضاء البصرة،  
وعامرا الشعبي على قضاء السكوفة كما جعل أبا الزناد كاتباً للأمير السكوفة. ولم  
يكتف عمر بذلك في إصلاح الإدارة الإقليمية، بل تقدم إلى العمال في أمر  
العقوبات ألا يأمرؤا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولاً.

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم، والمراد بالمظالم الأموال التي استولى  
عليها بنو أمية بغير حق، وقد بدأ في ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال عن كل مال  
لم يرض سبب تملكه، حتى لم يبق له إلا عقار يتسير ببلاد العرب يغل غلة يسيرة  
فوق عطائه الذي كان يبلغ مائتي دينار في العام، ثم أخذ يتتبع أموال بني أمية  
يرد منها ما ليس مشروع الملكية إلى مستحقه، وقد هاج ذلك سخط بني أمية  
عليه، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم «المظالم»، فلم تلب لغامرهم قناته،  
وأراهم أنه لا يحجم عن بلوغ الغاية في التنكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك. يروى  
ابن عبد الحكم «أن رجلاً من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك  
في حوانيت بمحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها، فقال له عمر أردد عليهم  
حوانيتهم، قال له روح: هذا معي بسجل الوليد. قال: وما يغني عنك سجل  
الوليد والحوانيت حوانيتهم، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوانيتهم.  
فقام روح والحمص منصرفين، فتوعد روح الحمص، فرجع الحمص إلى عمر،  
فقال: هو الله متوعدى يا أمير المؤمنين. فقال عمر لسكعب بن حامد وهو على

حرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوائثته فذلك ، وإن لم يفعل  
فأتني برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يغنيه أمر روح بن الوليد فذكر له  
الذي أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ،  
فيقال له : قم نخل له حوائثته ! قال : نعم ! نعم ! وخلي له حوائثته .

وسار عمر في إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعي ، فالأموال ينبغي  
أن تجبي من وجوهها وتنفق في مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت  
عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر ،  
وقال مقالته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جاييا » ونهى عن أن  
تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة . . . هـ ، مع عدم التعرض  
للحقوق التي اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن  
يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء أطلاق مالية لم يرد بها  
الشرع ، وقد جمعها في كتابه إلى عامله على الكوفة فقال « ولا تحمل خرابا على عامر  
ولا عامرا على خراب ، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ،  
ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا  
تأخذن في الخراج . . . أجور الضرايين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن  
الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا  
خراج على من أسلم من أهل الأرض » .

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ،  
فإنه لما شكك إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء  
جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر<sup>(١)</sup> ، كذلك رد جزية

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٧

قبرس إلى ما كانت عليه وقت الفتح ، وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> ، ويروى البلاذري أيضا<sup>(٢)</sup> ، أنه « وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غير ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينادوهم على سواء . فذكره أهل سمرقند الحرب وأقروا المسلمين » . وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه البلاذري<sup>(٣)</sup> ، قال : « قال ضمرة عن علي بن أبي حملة ، خاصمنا عجم أهل دمشق في كنيسة كان فلان أقطعها لبني نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردوها إلى النصارى » ، ويروى البلاذري أيضا<sup>(٤)</sup> ، أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى « فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكوا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم ، فذكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهضم مسجدا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ، وفيهم يوهن سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوها عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه » . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة .

(١) البلاذري ، ص ١٥٤ .

(٢) نفسه ص ٢٢٤ .

(٣) نفسه ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٢٥ .

أما ما ينسب إليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وأنه كتب إلى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بالوان من الاضطهاد والتضييق عليهم <sup>(١)</sup> ، فغير موثق مع المستيقن من سيرته على فرض صحته ، وقد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين .

وكما كان عمر حريصا على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة . فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق في مصارفها الشرعية . فمن حيث النية ، قد فرض لذرية المقاومة وعيالهم ، عملاً بسنة عمر بن الخطاب التي ترك بنو أمية العمل بها ، وكتب إلى عامله على السكوفة : « وانظر من أراد من الذرية الحج فمجل له مائة يحج بها » . وفرض لعشرين ألفاً من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعدادهم لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالاً إذا كان خراجها لابني بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده في فقراء أهله ، وقد قسم في فقراء البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمى خمسين خمسين ، وفرض للفقيريات من عوانس النساء ، وأعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب إلى أحد عماله « أن اعمل خانات في بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين . فإن كان منقطعا به فقروه بما يصل به إلى بلده » . وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين ، فكتب إليه بعضهم : « إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته » ، فكتب عمر

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٣ .

« لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه » . ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يحجزهم من عطاءه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المحدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بخير عطاء ، ولم يقصروا في مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم إنما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . وليبيان ذلك نقول إنه عمد في داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التي ناوت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إظهار السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب علي بن أبي طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين ( فدكا ) التي رأها حقا قديما لهم اغتصب منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر الأيقاتلوا حتى يفسكوا دما أو يفسدوا في الأرض ، وكتب في الوقت نفسه إلى شوذب يطلب إليه المناظرة في دعواه ، فأنفذ إليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج لينظرا ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتج به عليه من إقراره ببيعة يزيد بن عبد الملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالي فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصبية القبلية من يمنة ومضريه وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر مسلكا بدعا لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية إلى الإسلام . يروى البلاذري أنه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم . ولما انتفض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملأهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذري : « وقد كانت بلغتهم مسيرته ومذهبه فأسلم جيشة والملوك وتسموا بأسماء العرب » كذلك كانت سياسته بإزاء بربر المغرب الذين أشبوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذري : « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز ( رضه ) ولي المغرب اسمعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر كتباً يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الأمبراطور البيزنطي يدعوهم إلى الإسلام .

وكان عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديث التي

تفرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم : إن الإسلام حدودا وشرائع وسننا . . . . . فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها ، بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبحث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري إلى البادية ليفقهوا الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . نقل السيوطي « أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصفهان عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه ، وقال في فتح الباري « يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي » .

\*\*\*

وبعد ، فماذا كان أثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت إلى الغاية التي كان يرمى إليها عمر . فقد طاف بالامة الإسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتهما ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبري « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه ، فأما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ وأصبح الناس وقد شمساتهم نعمتا الرضا واليسر . قال « كثير » يخاطب عمر ويمدحه :

تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم

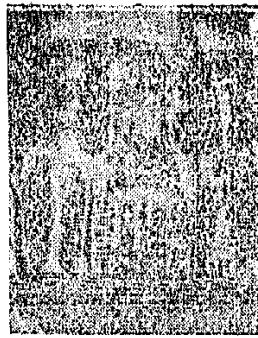
وصدقت موعود الذي قلت بالذي فعلت فأمرى راضياً كل مسلم

وروى ابن عبد الحكم قال : « قال يحيى بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقترضتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم وولأوهم للمسلمين » .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعاً إلا نفسه وأهله . فلم ير ولي قوم أعف عن ما لهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولسكنه أتعب نفسه فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرتة واحترق جسمه . وزادهما فقدانه في آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه : فقد ابنه عبد الملك ، وأخاه سهلاً ، ومولاه مزاحماً ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والألم ، فأسلم الروح بخناصره في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما يعد التاسعة والثلاثين من عمره . وقد دفن بدير سمعان قريباً من دمشق .

لا ندري ماذا كان عمر صانعاً لو مدله في حياته ؟. أغلب الظن أنه كان يتلافى موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الإصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته . ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه العلويون وأهدى إلى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضي أبياتاً من الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما قامت دولتهم احترمو قبره فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بني أمية ، على أن أبلغ من وصفه وأبنه رجل كان بحكم الظروف السياسية خصمه العنيد

بل عدوه اللدود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزي عن محمد بن معبد قال : « أرسل عمر بن عبدالعزيز بأسارى الروم فقادى بهم أسارى من المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوما فإذا هو جالس على الأرض مكتئبا حزينا . فقلت ما شأن الملك ؟ فقال أو ماتتدى ما حدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال مات الرجل الصالح ! قلت من ؟ قال عمر بن عبدالعزيز ، ثم قال ملك الروم : لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم لأحيىاهم عمر بن عبدالعزيز . ثم قال إني لست أعجب من الراهب إن أغلق بابَه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ، ولكنى أعجب من كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب . أما نحن فنلاحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه : نلاحظ فيه حبه للسلام وسعيه في توفيره في العالم ، فهو بحق داعية السلام في القرن الأول الهجرى والثامن الميلادى ، وكفى بذلك مفعلة في الدنيا ، وقربة في الآخرة ؟



## نساء الخوارج<sup>(١)</sup>

ينبغي قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم للمامة بسيرة بالخوارج عامة فنبين للقارىء من هم ؟ وما مبادئهم وآدابهم ؟ وما بداية أمرهم ونهايتهم ؟ فإذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشهيرات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ وظهورا . وأصلهم جماعة من جيش الإمام على بن أبي طالب الذى كان يحارب معاوية بن أبي سفيان فى وقعة صفين المشهورة فى سنة ٣٧ هـ . فلما اجتمع رأى الفريقين المتحاربين على قبول التحكيم بدل المضى فى القتال ، ورجع كل فريق إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يمشوا فى القتال حتى ينزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقاتلتهم المشهورة « لاحكم إلا لله » . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبرء من رده إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدموا فى ذلك بأنفسهم ، وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحجة عليهم . فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » ، منابذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج لخروجهم على على ، وبالمحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

(١) خلاصة محاضرة ألقى بمعهد الدراسات بالاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٩٤٨ .

ونلاحظ قبل كل شيء ، أن الخوارج عرب خالص ينتمى أغلبهم إلى قبائل  
تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم في الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام  
وألقى بجرانه على الجزيرة اعتنقه وواعقده قلوبهم بعد أن نطقت به ألسنتهم ،  
واستسماغوا منه بوجه خاص مبادئ الديمقراطية التي تلائم مزاجهم وتفق  
وتقاليدهم ، وأنزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القبلية التي يفدون عنها عند الاقتضاء  
بمهمهم وأرواحهم . وقد أبلوا في إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفي نشر  
الدعوة الإسلامية أعظم البلاء . وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا  
طريفا إلى عزهم التليد ، ويضمون مجدا حديثا إلى مجدهم القديم ، فإذا بهم أصبحوا  
يرون أن قد غلبوا على أمرهم ، وأن العز كله ، وأن المجد كله ، قد أصبح  
لأرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة جمذعة ولكن في صورة  
إسلامية لا غبار عليها . فلم يكن موقفهم من التحكيم في حقيقة الأمر إلا ظاهرا  
بحجب باطنا هو ما ذكرناه .

\*\*\*

أصبحت الخوارج في حروراء يرون أنهم وحدهم ( ومن انضم إليهم بعد )  
الفئة المسلمة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم  
وردهم إلى حظيرة الدين . وقد شددوا حيازيمهم للأمر العظيم ، وشمروا عن  
سواعدهم للخطب الجسيم ، وأقبلوا على أمرهم في حماسة دينية متقدة ، وشجاعة  
نادرة ، وإخلاص عميق ، وصبر عجيب .

ولكى يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين ، ويصلوا إلى تحقيق غرضهم الديني  
والدنيوي . صاغوا لأنفسهم مذهبا أو برنامجا شاملا متحدا في أصوله وجوهره  
ويختلف في الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال . فأما

من الناحية السياسية لجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتها وحوى ما يؤهل لها من تقوى وزهد وشجاعة ، ولا عبرة عندهم بالحسب والنسب والعربية والأعجمية . أخذوا ذلك من قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بل لقد ذهب بعض فرقهم إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردهم عن الظلم وصددهم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن للخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء في معنى الإيمان والمعاصي ما يكفر منها وما لا يكفر ، وفي التقية ، وهي إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لا تجوز ، وفي غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نعمة ، وفي معاصيهم والتزوج منهم وتزويجهم وموارثتهم ، هل تجوز أو لا تجوز . هذه الآراء مبينة في أخبارهم مقرر في توازيهم ولهم فقهاء مجتهدون يدينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهادهم وفقهم ، كما لهم شعراء بلغوا ينشرون مثلهم وعواظهم في شعر بليغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نبيلة منها الزهد في الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويبرأون من الكذب ، ولهم في ذلك نواذر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم ، ما يروى من أن زياد بن أبي سفيان بعد أن قتل عمرو بن أديّة الخارجي سأل مولى له عن سيرته فقال أأطنب أم أختصر ؟ فقال له بل أختصر ! فقال : ما أتيت به بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ! .

ومن أمثلة شجاعته أن منهم من طعن في الحرب فأنفذه الرمح فجعل يسبح فيه إلى قاتله وهو يتلو قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » .

ومن أمثلة استمساكهم بالصدق ما يروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس ابن أدية أدخل حبس عبيد الله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة اجتهداه وحلاوة منطقته ، فقال : إني أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفًا . أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك ، أتدلج إلى ؟ قال : نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قاتله . لأقتلن من في حبسي منهم . وأخرج السجنان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداسا الخبر . فلما كان السحر تهيا للرجوع . فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال إني ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجنان . فقال قد علمت ما عزم عليه صاحبك . فقال السجنان : أعلمت ورجعت ؟ ! .

ولفرط شجاعته في الحرب وشدة حملاتهم واستقتالهم كانت أعداد يسيرة منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث في واقعة آسك إذ هزم أربعون من الخوارج ألفين من جنود الدولة الأموية . وفي ذلك يقول شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم      ويهزمهم بأسك أربعونا ؟  
هم الفئة القليلة غير شك      على الفئة الكثيرة ينصرونا

.....

فمن أجل الديمقراطية المتطرفة التي كان يقول بها الخوارج في أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقريشا وأرستقراطية العراق حيث تعددت فرقهم وانتشرت تعاليمهم وعظم نفوذهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربهم حربا طاحنة لا هوادة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان . حاربهم على يوم النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة . وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على ما هو معروف . وحاربهم الحجاج بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه وبقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبي صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفورية وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجساء ، وعبيدة بن هلال ، وشبيب . كما حوربت الخوارج النجدية فى شرقى بلاد العرب وقتل زعمائهم نجدة وأبوفديك . أما الأباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا فلم يلجأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة الأموية فسلموا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا فى أنحاء من العالم الإسلامى وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرقى إفريقيا .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى فى الحجاز واليمن وشمال إفريقيا ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ربح الخوارج بذهاب دولة العرب وقيام دولة عصبيتها من الأعاجم . واستحال الخوارج قطاع طرق ومتلصصة ، وكانت آخر خروجة مشهورة لهم خروجة الوليد بن طريف الشيبانى فى الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقت بقية منهم إلى زمن المتوكل على الله العباسى . ثم ينتهى أمرهم وتحمد حركتهم فلا نحس لهم صوتا بعد ذلك .

ولعل القارىء يكون قد تبين مما تقدم سبب انقراض الخوارج وذهاب  
 ريحهم . إن الخوارج لم يؤتوا من قبل مذهبهم السياسى ، فذلك المذهب ديمقراطى  
 إسلامى لا غيار عليه . ولم يؤتوا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم  
 واستقامة وأخلاقهم ، فذلك كان مشار إعجاب الرأى العام الإسلامى وخاصة رأى  
 المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبى العباس المبرد صاحب كتاب  
 الكامل ، وإنما أتى القوم من قبل تنطعهم فى الدين وعدم سائر المسلمين كفارا  
 خارجين من الملة وانعدام الروح السياسى عندهم . فذلك الذى جر عليهم وعلى  
 مذهبهم البوار .

\*\*\*

ونساء الخوارج يشاركن رجالهم فى كل ما ذكرنا من فضائلهم من تقى وورع  
 وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن الدخوص المرأة وهو أبو العلاء المعرى استحضرت عند نظمه قصيدته  
 التائية الكبرى سير نساء الخوارج ما قال :

وإن تعط الإناث فأى بؤس      تبين فى وجوه مقسمات  
 يردن بعسولة ويردن حلياً      ويلقن الخطوب ملومات  
 ولسن بدافعات يوم حرب      ولا فى غارة متغشحات  
 ودفن والحوادث فاجعات      لإحداهن إحدى المكرمات  
 وقد يفقدن أزواجا كراما      فىا للنسوة المتأيمات  
 يلدن أعاديا ويكن عارا      إذا أمسين فى المتنهضات  
 ولنمثل لنساء الخوارج بذكر طائفة من مشهوراتهن يستبين منها القارىء  
 صدق وصفنا لهن .

(١) فمنهن قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت من أهل السكوفة . وهي التي أراد عبدالرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب التزوج منها فقالت له : « لا أفنع منك إلا بمصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا . فقال لها : لك ما سألت ! فكيف لي به ؟ قالت تروم ذلك غيلة . فإن سألته أرحمت الناس من شر ، وأقت مع أهلك ، وإن أصبت صرت إلى الجنة ونعيم لا يزول . وفي ذلك يقول ابن ملجم :

ثلاثة آلاف وعبيد وقينة      وضرب على بالحسام المصمم  
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا      ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم  
ونحن نعرف ما صار إليه أمر ذلك الفتاك من قصاص عاجل عادل .

(٢) ومنهن البليحاء التميمية وكانت كما يقول أبو العباس المبرد من مجتهدات الخوارج : وكان أبو بلال مرداس بن أدية قد لقيه صاحب له فقال : يا أبا بلال ! إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البليحاء ، وأحسبها ستؤخذ . فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : « إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية ، فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك . قالت : « إن يأخذني فهو أشقى بي . فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي . فوجه إليها عبيد الله بن زياد فألقى بها ففقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق . فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البليحاء ! فخرج إليها ، فنظر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : « لهذه أطيب نفسا عن بغية الدنيا منك يا مرداس ! »

(٣) ومنهن أم كهمس : كان ممن قتل ابن زياد من الخوارج رجل يقال له كهمس ، وكان من أبر الناس بأمه . فقال لها يا أمتا الولا مكانك خرجت

فقلت « يا بني ! قد وهبتك لله » فخرج فحارب فقتل مع جماعة من أصحابه ،  
فقلت فيهم أم الجراح العدوية ، وهي من نساء الخوارج ، ترثيهم وتخطب قاتلهم  
ابن زياد :

وما بعد مرداس وعروة بيننا وبينكم شيء سوى عطر منشم  
فأست بنساج من يد الله بعدما هزقت دماء المسلمين بسلا دم  
(٤) ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث  
برأسه إلى ابنته . فجاءت وجثته مطروحة بين يدي ابن زياد ، فقال لها « أنت  
على دينه ؟ » قالت « وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه ! »  
فأمر بها فقتلت مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان فحكما في  
مسجد البصرة ، ( أى قالا لاحكم إلا لله ) ثم أخذت المرأة نحو بنى سليم ، وأخذ  
الرجل نحو رحبة بنى تميم ، فرآها قد بعدت منه ، فنادها « يا جذعة ! اقربي  
منى ! » فقالت « إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقتلها الناس .  
(٦) ومنهن المرأة التي أرادت الثأر لمقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج  
الأزارقة والمقتول في وقعة دولاب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلي :  
« قتلت نافعا فطالبتني بأمره امرأة كانت تدعوني إلى المبارزة ونحن نقاتل عبيد الله  
ابن الماحوز ،

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان  
يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصمهباني بإسناده قال « إن امرأة من الخوارج  
كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم  
وجها وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرني من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز !

أحمل رأساً قد سئمت حملة      وقد مللت دهنه وغسله  
ألا فتي يحمل عني ثقله !

قال وهم يقدونها بالآباء والأمهات فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلاً ، وفي أم  
حكيم هذه وفي وقعة دولاب يقول قطري :

لعمرك إني في الحياة لزاهد      وفي العيش ما لم ألق أم حكيم  
من الخفرات البيض لم ير مثلاً      شفاء لذي بث ولا لسقيم  
لعمرك إني يوم أظلم وجهها      على نائبات الدهر جسد لنيم  
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت      طعان فتي في الحرب غير ذميم  
إلى أن يقول :

فأول شهادتي يوم ذاك وخيلنا      تبيح من الكفار كل حريم  
رأت فتية باعوا الآله نفوسهم      بجنات عدن عنده ونعيم  
(٨) ومنهن جهيزة أم شبيب رأس الخوارج الصفرية ؛ وغزاة زوجته .  
قالوا لما اشتدت الحرب بين شبيب وبين الحجاج بن يوسف أمير العراق كانت  
جهيزة أم شبيب وغزاة زوجته تقا تلان معه . ونذرت غزاة لله إن هي دخلت  
السكوفة عاصمة الحجاج أن تعمد إلى المسجد الجامع فتصلي فيه وتتلو سورتي  
البقرة وآل عمران . ودخل شبيب السكوفة وخرج منها الحجاج هارباً ، وقد  
وفت غزاة يومذاك بنذرهما . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه  
عمران بن حطان بقوله يعير الحجاج فراره من غزاة :

صدعت غزاة قلبه بفوارس      تركت كتائبه كأمس الدابر  
أسد علي وفي الحروب نعامة      ربداء تنفر من صفيير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الرغي بل كان قلبك في جناحي طائر  
ألقى السلاح ونخذ وشاحي معصم وأعد لمنزلة الجبان الكافر  
ثم إن الحرب استوفت بين شبيب والحجاج فقتلت جبهة أم شبيب وكانت  
قد قتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شبيب ولدت شبيباً هل تلد الذبيبة إلا ذبيبا ؟  
وقتل كذلك زوجته غزالة ، وأحتر رأسها فقال الحجاج عند ذلك : والله  
ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه !

(٩) ومنهن امرأة جىء بها إلى الحجاج وبخضرتها مولاه يزيد بن أبي مسلم  
وكان يستسر برأى الخوارج ، فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد :  
« الأمير ويلك يكلمك » فقالت : « بل الويل لك أيها الفاسق الرديء » قالوا  
والرديء عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قو لهم ويكتمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبي حمزة الخارجي الذي  
خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقتلت وهي ترتجز :  
أنا ابنة الشيخ الكبير الأعلم من سال عن اسمي فإسمي مريم  
بعت سوارى بسيف مخدوم

(١١) ومنهن الفارعة ليلي بنت طريف الشيباني . روى أن الوليد بن طريف  
الشيباني خرج في سنة ١٧٨ هـ في خلافة هارون الرشيد ، بالجزيرة وأرمينية ، وقتل  
بعض أهل الرشيد واستطار شره في تلك الجهات استطار النار في الهشيم  
وجبي الأموال ، فسير الرشيد إليه يزيد بن يزيد الشيباني فقاتله فقتله ،  
فصحبهم أخته ليلي بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس  
فعرفت . فقال يزيد قائد جيش الرشيد « دعوها » ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال : اعز بي عزب الله عليك ، فاستحييت وانصرفت . ثم رثت  
أخاها الوليد بهذه المرثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وناصعه :

|                               |                            |
|-------------------------------|----------------------------|
| بتل تبائي رسم قبر كأنه        | على علم فوق الجبال منيف    |
| تضمن جودا حاتميا وناثلا       | وسورة مقدم وقلب حصيف       |
| ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت | فتى كان بالمعروف غير عفيف  |
| فإن يك أرداه يزيد بن مزيد     | فيارب خيل فضها وصصفوف      |
| ألا يا القومى للنواب والردى   | ودهر ملح بالكرام عنيف      |
| وللبدر من بين السكواكب قد هوى | وللشمس همت بعده بكسوف      |
| فيأشـجر الخابور مالك مورقا    | كانك لم تجزع على ابن طريف  |
| فتى لا يحب الزاد إلا من التقى | ولا المال إلا من قنا وسيوف |
| ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة   | وكل حصان باليدى عزوف       |
| فلا تحزننا يا ابني طريف فإنى  | أرى الموت نزالا بكل شريف   |
| فقد دناك فقدان الربيع فليتنا  | فديناك من دهمائنا بألوف    |

وقالوا واعتمر الرشيد فى تلك السنة فى شهر رمضان شكرا لله على قتل الوليد  
ابن طريف .

...

كانت غزالة خاتمة نساء الخوارج اللاتى ظهروا على مسرح الحوادث العامة  
ونقلت الينا أخبارهن وأطراف منها . وكل من ذكرنا منهن يتصف بصفات  
الشجاعة والجسارة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة  
تسلك غير واحدة منهن فى عداد مجتهدى هذه الفرقة وخطبائها وشعرائها .

والمرأة الخارجية إنما تحتفظ فى كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصميمة إن

قبل الإسلام وإن صدر الدولة الإسلامية . فأما قبل الإسلام فنجد بلقيس التي كانت ملكة عظيمة على بلاد اليمن والتي راسلها سليمان ملك بني إسرائيل ، وقد قص القرآن الكريم قصتها في سورة النمل ، فليرجع إليها .

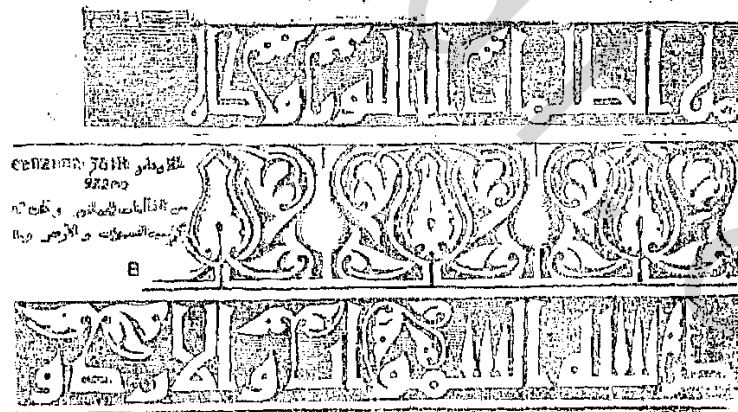
ونجد الزباء ملكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الروماني أوريليان حربا شديدة في القرن الثالث الميلادي . كما نجد سجاح بنت الحرث التميمية التي قادت الجيوش في حرب الردة لقتال الخليفة أبي بكر الصديق . وأما صدر الدولة الإسلامية فنذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكانت عند زواجها منه جميلة وسيمة وفي عنفوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعين من عمره ، ومع ذلك فقد كانت وفية له حياء وميتا . فهي التي قامت تنود عنه يوم الدار فنفخ أحد قتلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلما قتل عثمان وأراد معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فيما يقولون عمدت إلى أسنانها فتمتها بخاتم في إصبعها ليذهب جمال ثغرها فينصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السلام وقد جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمدة المحدثين والفقهاء ، ولقد قادت الجيوش في وقعة الجمل واستهدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذي كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لكثرة ما وقع فيه من السهام في تلك الوقعة . ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحتفظ بهذه التقاليد طوال مائة وخمسين عاما أو تزيد فلما تحولت الحال في الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على أمرهم على أيدي موالى الفرس وماليك الترك وعادوا إلى بواديهم يعيشون رعاة إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكائنها ومنزلتها ، غلبها جوارى وسريات الأعاجم من فرس وترك وروم  
وصقالبه فمادت إلى الانزواء والخنول بعد نباهة الذكر وعلو القدر .

ومما هو جدير بأن يلاحظ في هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد  
الدولة العربية ، ولا شك أن بين الأمرين اتصالاً وثيقاً . فالمرأة العربية الخارجية التي  
وصفناها من نوع المرأة التي أنجبت أولئك القواد العظام والجنود البواسل والإداريين  
الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا عمادها ،

أم شبيب ولدت شبيباً هل تلد الذبيبة إلا ذيباً !  
فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخلاقي للمرأة المسلمة  
بانحطاط المستوى الأخلاقي العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمي لبث  
زمناً يتهيب الإقصاد على فتح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الاختشيد  
مستهترات ولا يعبان بالفضيلة قال « الآن فتحت مصر » وسير من فوره إلى  
مصر جوهرًا بحملته المشهورة ؟



# الأدب العربي المصري<sup>(١)</sup>

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أنصار التاريخ وأساتذته ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصري وإذاعته بين جمهور المتعلمين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها في مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التي ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير في تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للبحاث في التاريخ المصري .

نزعة شريفة ، وعمل جليل ، له في تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضعيف . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد الكمال متى عرفت الأمة تاريخها تاما غير مبتور . وذلك بأن يدرسه أبنائها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كائن حي ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضى الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن ننساق مع القياس المنطقي فنقول : إن التاريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كائنا حيا ذا جسم وروح . وما الجانب الجثمانى للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحاني فما كان متعلقا بالأدب وما ينتسب إليه من العلوم .

---

(١) مقالة نشرت بمجلة السفور ٦ عدد ١٧١ : ١٦ سبتمبر ١٩١٨ ، وقد قصدنا بنشر هذا المقال والذي يليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيات أن يفقه قارىء كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجانب  
الجثمانى من تاريخها وأغفل الجانب الروحانى . خذ لذلك مثلاً أمة الإغريق  
القدماء . فحياة هذه الأمة السياسية ملوثة بالعيوب والنقائص . ولو أنك أردت  
الحكم عليها من تاريخها السياسى لجعلتها فى أخريات الأمم التاريخية . ولستكنك  
إذا ما قرأت أديبا فهيرك ماترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسخ حكمك  
وترفعها فوق أمم الأرض مكانا عليا .

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية  
نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام  
حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها .  
من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل  
جماعة أخرى ، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر ، ثم دراسته ،  
ووضع تاريخ له تكون صلته بتاريخ أدب اللغة العربية العام صلة تاريخ الأدب  
الأمريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام .

لقد طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه ، حتى أصبح أكثرنا  
يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية . ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب  
المكتب العربية والأفريقية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت  
الأدب المصرى . ولا نعلم كتابا عربيا يسلم من ذلك النقد إلا كتاب « أدب اللغة  
العربية » لجرجى بك زيدان . على أن مؤلف هذا الكتاب إنما عطف على الأدب  
المصرى فى العصور الأخيرة ، لأنه جزء متمم لأدب اللغة العربية لا لأنه  
قائم بنفسه .

وسنبين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله .

# الأدب العربي المصري وتاريخه<sup>(١)</sup>

## أسباب إهمالهما

٢

بيننا في مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبي ووضع تاريخ له يدرس في المدارس ثانويها وعاليها . ووعدنا أن نبين ماصرف أقلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصري . وها نحن أولاء نفي القارىء بما وعدنا .

لقد كان السبب الأساسى لذلك التقصير الأدبي في نظرنا : الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصري أحط منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي . فليس في مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من يسامى جرير أو أبانواس والمتنبى وابن هانيء ، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد . ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحاً فإنه لدى التفصيل لا يسلم من معرة الخطأ وركوب الاعتساف . ولو درس الأدب المصري القديم حق دراسته لارتفع أقوام وانخفض آخرون ، ولكان للأدب العربي عامة نظام غير نظامه المعهود .

فلنقل الحقيقة المرة على علاتها : لنعتقد مع الأقدمين بأن الأدب المصري أقل منزلة وأقل مقداراً من أخويه العراقي والأندلسي . فما مصدر تلك الخطئة وهذه القلة ؟ لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

(١) نشرت بالعدد ١٧٢ من مجلة السفور سنة ١٩١٨ .

لكن الفتح العربي إلى مختم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام الصلة بين فساد تلك الحال سياسيا ونقص الأدب المصرى فى عهدها . لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبي وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والمماليك وولاية الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخذاء السياسى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الأدب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الأدب عامة إنما يزكو فى دور العزة وأمكنة السلطان ويزدهر فى مواطن الذلة والخضوع . والأدلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالأدب الإغريقى علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخذت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطالمة إنما تأدى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الأدب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولاية أمورها يحرصون عليه . ولما كان ظله ينقبض إذا كان فى أرض حكامها لا يتذوقون اللغة أهلها وأدبهم طعما ، كما حدث للأدب الأندلسى حين فتح المثلثون الأندلس « وكانوا أقواما من همج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئا . وبعد هذا كله فالأدب الإسلامى سنى المذهب ويأبى أن يزهو ويؤثأكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الأدب المصرى قد نكب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية ذكبة شديدة ، ذكبة أثرت في قدره ومقداره مما وعرفت عنه  
أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرق الفخم والأندلسي العذب . وليس ذلك  
بعجيب . إنما العجيب أن نمضى نحن المحدثين على سبيل آباءنا ونعتقد اعتقادهم في  
أدبنا القديم . ثم لا نقف عند هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا  
الحديث مع أنه مما نأبأ به غيرنا إن فائقنا المباهاة بأدبنا القديم .

وبعد فإننا بناء قومية والواجب يقضى علينا بأن نجمع شمل أدبنا المشتت وندرسه  
فهل يحجب رجال الأدب في مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم  
رجال التاريخ ؟

## البعث ...

نختبئ أشد الاغتياب بمظاهر الحياة التي دب ديبها وسرى تيارها في العالم في العام المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فكل قطر إسلامي قد هب بعد طول الرقاد ، وصحا بعد نوم مستغرق عميق . فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشيء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقهم الطبيعي في الوجود وهو الحرية والاستقلال . والهند في قلق واضطراب طال أمدهما . وإيران وتركيا تعانيان كلب جار قوى وخمهم الد عنيد . والعالم العربي قد نهض يجمع شتاته ويطامن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد دائر وعز قديم . وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب في الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصهيونية أو كادت تميل . والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يبسطوا عليه جناح محبة وعاطفة حنان . والسودان في حركة تؤذن بانبعاث الحياة في جثمانه .

\*\*\*

هي حياة إن شئت فشبهها بالنار الكامنة في الحجر الصلب ، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هي قد تطاير شررها وتوشك أن يكون لها هيب وضرام . وإن شئت فشبهها بالحويطة المستكنة في الحبة أو النواة فما هي إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هي شجرة باسقة مورقة فينانة توشك أن تخرج أنضر الزهر وتحمل

أطيب الثمار . أو بالبخار المنبث في الهواء لا تحسه العين ولكن متى تهأت له أسباب التكاثف والانعقاد إذا هو رذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالاً تسيل منه الأودية والقيعان وتخضر الوهاد والنبجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار السكامة واستنبت تلك الحبة الطامدة وعقد ذلك البخار المبهوث ؟ إن شئت فقل هو تحكم شراذم من الهولنديين فى ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجهرهم بأن الهند ألمع درة فى تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا فى غير تخرج ولا استحياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رضى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان والطلليان فى إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالعزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن فى المسلمين ذمء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قست عليه الحوادث وتحيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته ، شديد الاعتزاز بعقيدته ولغته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قدم التاريخ ، بل لعلها أقدم من التاريخ .

\*\*\*

فى القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحيى الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يده . وهو سبحانه قد يمت من عباده من يشاء موتاً مؤقتاً ثم يعثه

ليكون لنفسه ولغيره من الناس آية وعبرة . من ذلك إمامته عزيراً ثم بعثه إياه بعد مائة عام . وقد يلقي الله النوم على جماعة بعينها مئين من السنين ثم يبعثها إياه منه إلى أن لكل رجال زماناً لا ينبغي أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلاً لذلك قصة أهل الكهف والرقيم . وقد يحيى سبحانه حيواناً بعد إمامته إحياء معجلاً سريعاً ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياء الطيور الأربعة التي أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها ويقطع أو صالها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوها ، فلما فعل أتت إليه الطيور سراعاً مشياً وطيراناً . قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً ، وأعلم أن الله عزيز حكيم » ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة . ويقولون إن في القصة إيماء لطيفاً إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتي بإماتة الشهوات والزخارف التي هي صفة الطاووس ، والصلوة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصنف بهما الغراب ، وقلة الرغبة في الترفع والمصارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمات الله الأمم الإسلامية أو ألقى عليها نوماً ثقيلاً حقبة من الدهر ثم تأذن بحياتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما نشاهد في أنحاء العالم الإسلامي من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تنعم به الأمم الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

## كشفاف

|                                 |                                      |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| أبرهة الحبشى ٢٠                 | ابن عبد الحكم ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢          |
| إبراهيم النخعي ٥٩، ١٩٥          | ١٧٣،                                 |
| أبرويز ٨٦                       | ابن هانيء ١٩٠                        |
| الآبلة، انظر البصرة             | ابن هشام ١٥، ٤٩                      |
| ابن الأثير ٣٤، ٣٦               | أبو أحمد ٥٠                          |
| ابن إسحق ٩، ١٥، ١٨، ١٩، ٤٢، ٤٥، | أبو بكر ١٨، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٦٢، ٧٨، ١٠٩  |
| ٤٩، ٥٥، ١٢٣                     | ١١٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥              |
| ابن الأشعث ١٤٦                  | ١٢٦، ١٦١، ١٨٦                        |
| ابن الجوزي ١٧٤                  | أبو بكرة ١٣٣                         |
| ابن حزم (أبو بكر محمد) ١٦٦، ١٧٢ | أبو تمام ١٠١                         |
| ابن الدغنة ١٨                   | أبو جعفر الأصفهاني (الوزير) ٢٥       |
| ابن رشد ١٩٠                     | أبو جهل بن هشام المخزومي (أبو الحكم) |
| ابن سعد، محمد — ٣٣، ٧٣، ٧٤      | ١٠، ١١                               |
| ١١٥، طبقات — ١١٥                | أبو الحسن المسعودي ١٠٩               |
| ابن سعيد ٧٦                     | أبو حمزة الخارجي ١٨٤                 |
| ابن السوداء ١١٤                 | أبو ذر الغفاري ١٠٨، ١١١، ١١٢         |
| ابن سينا ١٩٠                    | ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦                   |
| ابن شهاب الزهري ١٦٤             | أبو رافع ٢١                          |
| ابن عباس ٥٥، ١٢٥                | أبو الزناد ١٦٦                       |

|                                  |                                   |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| أبو سفيان بن حرب ١٠، ١٨، ٢١، ٤٩  | أبو الهيثم بن التيهان ٤٥          |
| ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥          | أثينا ٨٨                          |
| أبو طالب ٣٥، ٤٠                  | أحمد ١٨، ٢١، ٢٣، ٦٢، ١١٢          |
| أبو العاص بن الربيع ٣٤، ٣٦       | أحمد لطفي السيد ٩٣                |
| أبو عامر سيد الأحابيش ٢١         | الإخشيد ١٨٧                       |
| أبو عامر الراهب ٤٤               | أردشير ٨٦                         |
| أبو العباس المبرد ١٨٠، ١٨١       | أردوان الإشتغانيين ٨٦             |
| أبو عبيد الثقفي ٧٩               | الأرقم بن الأرقم المخزومي ٢٢، ٢٣، |
| أبو عبيد الله ١٢٦                | ٢٤، ٢٥                            |
| أبو عبيدة بن الجراح ٧٧، ١٢٢، ١٢٥ | أرمينية ٨٦، ١٧٩، ١٨٤              |
| أبو العلاء المعري ١٨٠            | الأزرقى ٢٠                        |
| أبو فديك ١٧٩                     | الأزد ١٣١                         |
| أبو قبيس ٥٩                      | أسامة بن زيد ٧٦                   |
| أبو لؤلؤة ٨٤                     | أسبرطيون ٨٩                       |
| أبو موسى الأشعري ١٢٨، ١٢٩        | الاستقساء ٧٤                      |
| ١٤٠،                             | آسك ١٧٨                           |
| أبو نعيم ١٧٢                     | الإسكندر ٥٢                       |
| أبو نواس ١٩٠                     | الاسكندرية ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢،      |
| أبو هالة هند بن زرارة التميمي ٢٨ | ١٠٩، ١٩١                          |
| أبو هريرة ( أبو هر ) ٦٩، ١٢٣     | الإسلام ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥،       |
| ١٢٤،                             | ٣٩، ٤٤، ٥١، ٥٨، ٦٤، ٦٥            |

|                                  |                                           |
|----------------------------------|-------------------------------------------|
| الاصمعي ١٤٣                      | ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ،             |
| اصطنخر ١٣١ ، ٨٥                  | ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٧ ،             |
| افريقية ، المغرب ١٤٥ ، ١٧١ ، ١٧٣ | ١١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،            |
| أفلاطون ١٥٥ ، ٩٤                 | ١١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٣ ،             |
| الأفلاطونية الحديثة ٨٨           | ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، |
| إلبا ٥٢                          | الشرق العربي ٦٤ العصر الإسلامي            |
| آل بربون ٥٢                      | ١٢٢ البلاد العربية ، الأمة العربية        |
| الإمامة ٢٦                       | الأمة الإسلامية ٦٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،          |
| أليون الثالث ١٧٤                 | ١١٥ ، ١٢١ ، ١٦٥ الحسكومة                  |
| أبج ٤٧                           | الإسلامية ٦٦ الشريعة ١١٠ ، ١٢١ ،          |
| أم الجراح العدوية ١٨٢            | ١٦١ ، ١٦٧                                 |
| أم حكيم ١٨٢ ، ١٨٣                | أسلم ( قبيلة ) ١٩                         |
| امرؤ القيس ١٠١                   | أسلم مولى عمر ٦٨ ، ٦٩                     |
| أم سلمة ٥٥                       | اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ١٧١    |
| أم شبيب ١٨٣ ، ١٨٧                | آسيا الصغرى ٨٦                            |
| أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن       | السيد الحميري ١٢٥ ، ١٢٦                   |
| الخطاب ١٥٦                       | أشغانيون ٨٥                               |
| أم كلثوم بنت النبی ٣٢ ، ٣٣       | أشور ١٠٢                                  |
| أم كهس ١٨١                       | أشوريون ٨٩                                |
|                                  | أصم بيهان ١٧٢                             |

|                                 |                                |
|---------------------------------|--------------------------------|
| بابل ١٠٢                        | انجلاز ١٩٤                     |
| بابليون ٩٥،٤                    | الاندلس ١٦٦،١٤٦                |
| بتلر ٩٧،٩٥،٩٤،٩٣                | أندونيسيا ١٩٤،١٩٣              |
| البخترى ١٠١                     | الإنجيل ٢٨                     |
| البحر الأحمر ٧٠،٤٧،٢٩           | أنس بن مالك ١٥٦                |
| بحر الروم ١٠٣،١٠٢،١٠١،٩٩        | الانصار ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦،        |
| البحرين ١٤٧                     | ١٢١،١١٥،١١١،٥٧،٥٥،٥٣           |
| البخارى ٤٤                      | الأنفوشي ٩٩                    |
| البخترى بن هشام الأسدي ١٠       | أنو شروان ٩١٠،٩٠،٨٨            |
| بد ١٤٩،١٤٧                      | أهل ذمة ١٦٩،١٦٨،١٦٧            |
| بدر ١١٢،٥٠،٤٩،٤٧،٢٣،٦           | أهل السنة ١٧٣                  |
| بدر بن حارثة ١٤٤،١٤٣            | أهل كتاب ٤٢، ١١٣               |
| البردة ١٠٦                      | الاهواز (جبل) ١٤٢، (ناحية) ١٨٢ |
| برقة ٩٥                         | أهورا مزدا ٨٩                  |
| برهمناباذ ١٥٠،١٤٧               | الأوس ٤٤،٤٣،٤٢،٤١،٢٠           |
| البرهة (قبيلة هندية) ١٤٧        | آل زياد ١٣٥                    |
| بسر بن أرطاة ١٣٣                | آل كاشف الغطاء ١١٧ (محمد       |
| البصرة ١٠٦، ١٠٩، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، | كاشف الغطاء النجفي)            |
| ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،   | أورليان ١٨٦                    |
| ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٦٦،   | أيوب النبي ١٤٧                 |
| ١٦٩                             | بابك ٨٥                        |

|                                    |                                 |
|------------------------------------|---------------------------------|
| البطالة ٩١، ٥١                     | بنو جحش ٤٩، ٤٦                  |
| بعث ٤٣                             | بنو جحج بن أمية بن خلف ١٠       |
| بغداد ١٢١                          | بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة |
| البيقع ٦٢، ٦٩                      | ١٨، ١٥                          |
| بكر بن عبد مناة بن كنانة ( بنو     | بنو حارثة ٦٩                    |
| بكر — ) ١٩                         | بنو سلامة ٦٩                    |
| بكر بن وائل ١٣١                    | بنو سهم ١٠                      |
| البكرية ١٠٦                        | بنو عامر ٧                      |
| البلاذري، صاحب فتوح البلدان ٤٨،    | بنو العباس ١٤٠ انظر: عباسيون    |
| ١٥٦، ١٤١، ١٤٠، ١٢٣، ٧٥، ٥٠         | بنو عبد الأشهل ٦٩               |
| ١٨١، ١٦٨، ١٦٧، ١٥٠، ١٤٩            | بنو عبد الدار ١٠                |
| بلال بن رباح ٤٨، ٢١                | بنو عبد شمس ١٠                  |
| البلجاء التميمية ١٨١               | بنو عبد مناف ١١                 |
| بلقيس ١٨٦، ٦                       | بنو عدي ١٢٥                     |
| بنو أسد ١٠                         | بنو عقيل ١٦٥                    |
| بنو إسرائيل ٦                      | بنو فزارة ٢٠                    |
| بنو أمية، الدولة الأموية ١٤٠، ١٥٧، | بنو قريظة ٤٣، ٦٩                |
| ١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦،                | بنو قصى ٩                       |
| ١٦٩، ١٧٣، ١٧٨، ١٧٩، ١٩١،           | بنو قينقاع ٤٣                   |
| بنو تميم ١٣١                       | بنو مخزوم ٢٣                    |
| بنو تيم ١٢٥                        | بنو المصطلق (من خزاعة) ١٥،      |
|                                    | ٥٣، ١٩                          |

|                                  |                                  |
|----------------------------------|----------------------------------|
| بنو المطالب ٣٩، ٣٥               | تركيا ١٩٣ ، الترك العثمانيون ٨٩  |
| بنو مضعون ٤٦                     | التصوف الفارسي ٨٨                |
| بنو المغيرة ٣٠                   | تل تباث ١٨٥                      |
| بنو النجار ٤٨                    | تميم ١٨٢، ١٧٦                    |
| بنو نصر ١٦٨                      | تهامة ١٣                         |
| بنو النضير ٤٣ ، ٥٠               | التوراة ٢٨                       |
| بنو نوفل بن عبد مناف ١٠          | توماس مور ١٥٥                    |
| بنو هاشم ٢٨، ٣٥، ٣٩، ٤٧، ٤٩، ١٢٥ | ثعلب (جمل) ١٩                    |
| بهشة ٧                           | ثقيف ٢٠، ٤٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥،      |
| بهرام الأول ٩٠                   | ١٤٧، ١٤٥                         |
| بهرام جوبين ٩١                   | ثور (جبل) ٤٧ (غار) ٥٨            |
| بومباي ١٤٧                       | تيوفان ١٧١                       |
| بيت المقدس ٨٦                    | جارية بن قدامة السعدي ١٣١        |
| بيت المال ١١٩، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠،    | جامع عمرو (الجامع العتيق) ٤      |
| بيت مال البصرة ١٣٠               | الجامعة العربية ١٩٣ ، ١٩٤        |
| البيعة ٤٢ ، بيعة العقبة ٤١، ٤٢   | الجاهلية ٦٧، ١٠٦، ١١١، ١٣، العصر |
| تانة ١٤٧                         | الجاهلي ١٢٢، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٥،      |
| تبوك ٩٧، ٩٨، ١١٢                 | ١٤٦، ١٤٧،                        |
| التار ٨٧                         | الجبانة ٨٠                       |
| تدمر ١٨٦                         | جبير بن مطعم ١٠                  |
| الترك ٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ١٨٦،    | جدة ١                            |

|                                  |                                    |
|----------------------------------|------------------------------------|
| الحافظ بن عساكر ١٤٣              | الجرار ٨١                          |
| حبش ، أحبابيش ١٣ ، السودان ١٤ ،  | جرمين رويارد ٩٦                    |
| ٢١،٣٠،١٩،١٨،١٧،١٦،١٥             | جرير ١٩٥                           |
| الحبشة ١٤، ٢٠، ٢٢، ٣٧، ٣٩        | جزعة ١٨٢                           |
| حبشى ( جبل ) ١٥، ١٧              | جزيرة العرب ، الجزيرة ، بلاد العرب |
| الحسن البصرى ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦       | قلب البلاد العربية ١، ٢٠، ٢٤، ٢٦   |
| الحج ٣٤ ٤١ ٤٤ ٦٠ ٦١ ٦٤ ٦٥        | ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧     |
| ٦٦ ٦٧                            | ١٠٨، ١٤٦، ١٧٩                      |
| الحجاز ٢٠ ٢٤ ٢٥ ٢٧ ٣٩ ٥٧         | الجزيرة ٧٩، ١٨٤                    |
| ٦١ ٦٣ ٩٧ ١٤٥ ١٥٧ ١٥٩             | جستفان ٨٨                          |
| ١٨٤                              | الجسر ( وقعه ) ٧٩                  |
| حجر اسماعيل ٥٩                   | جلولاء ٩٢، ١٢٧، ١٢٩                |
| الحجر الأسود ٥٩ ٦٦               | الجل ( وقعة ) ١٣٠، ١٨٦             |
| حجر بن عدى الكندى ١٣٤ ١٣٨        | جميع بن حاضر الناجى ١٦٨            |
| ١٤٣ ١٤٠                          | جميل ١٤٦                           |
| الحجون ٣٥ ٤٩                     | جمجاه الغفارى ٥٣                   |
| الحجاج بن يوسف الثقفى ١٤٥، ١٤٦ ، | جميزة ١٨٣، ١٨٤                     |
| ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣          | جهينه ٧                            |
| ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥ ،             | جوته ٩٤                            |
| ١٦٧، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٤ .             | جوهر ١٨٧                           |
| الحديبية ١٨، ١٩، ٥٤، ٥٥، ٥٨      | جيشبة ١٧١                          |
| الحديث ١٢٣ ، ١٣٥ ١٥٧ ١٥٩،        | الحارث بن عامر بن نوفل ١٠          |
| حروراء ٧٥، ١٧٦                   | الحارث بن كلدة ١١٧، ١٣٤            |
| الحسن بن على ١١٨ ١٣٢             | الحارث بن محمد الأشعرى ١٢٨         |

خراسان ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨

خراش بن أسية الخزاعي ١٩

خزاعة ١٣ ، ١٦ ، ١٩

الخزرج ٢٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١١

خزيمة ١٦

خناصره ١٥٧ ، ١٧٣

الخندق ( المدينة ) ٣٣ ، ٦٢ ، ١١٢

الخندق ( العراق ) ٨١

الخليج الفارسي ١٤٨

الخوارج ، الخروريه ، الحكمة ،

الأزارقة ، الصفريه ، الإباضية

النجديه ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٠

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٥

الخورنق ٨١

خويلد بن أسد بن عبد العزى ٢٧

خيبر ٢٠

خير ٨٦

خيران ٢٥

دابق ١٦٤

دار الإمارة ١٤٢ ١٤٣

دار الرزق ١٤١

حسان بن ثابت ١٦ .

حفصة بنت عمر ١٢٢ .

الحكم بن أبي عقيل ١٤٥

الحكم بن أبي العاصي ١٤٧ .

حكيم بن حزام الأسدي ١٠ ، ٢٨

حلب ١٥٧

الحلة ١٢

الحليس بن ذبان ١٨

حمزة بن عبد المطلب ١٨ ، ٢٤

حصص ١٦٦

حنيفة ١٧٦

الحيرة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧

الخابور ١٨٥

خالد بن الوليد ٢٠ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤

خبيب بن عبد الله بن الزبير ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦٢

خديجة بنت خويلد ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠

الخراج ، الجزية ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ،

١٦٧ ، ١٧٠ ، الأرض الخراجية

١٦٠ ، ١٦٧ ، الأرض العشرية

١٦٠ ، ١٦٧

٦٩ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٥٨ ٥٧ ٥٦

١٢١ ١١٠ ١٠٥ ٩٧ ٧٧ ٧٣

١٢٦ ١٢٥ ١٢٤ ١٢٣ ١٢٢

١٨٦ ١٦٧ ١٦١ ١٣٥

الرشييد ١٨٤ ١٨٥

رقية بنت النبي ٢

الرمادة ٦٧ ٦٩ ٧٢ ٧٣ ١٧٦

روح بن الوليد بن عبد الملك ١٦٦ ١٦٧

الروس ١٩٤

الروم ٧٢ ٧٩ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩

٩٢ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١١٢

١٨٧ ١٧٤ ١٥١

روما ٦١

الرومان ٥ ١٠٢ ١٠٣ ١٢٢

الري ١٤٨

الزباء ١٨٦

الزبير بن العوام ٢٨ ١٠٩ ١١٠ ١٣٠

الزراذشتية ٨٩ ٩٠ ٩١

الزط ١٤٧ ١٥٠ ١٥١

الزكاة ١١٤ ١٦٧ ١٦٩

زمزم ٥٩

زمنة بن الأسود الأسدي ١٠

زهرة ٨٢

الزهري ٨ ١٢٣

زهير ١٠

زياد بن أبي سفيان ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩

دار الندوة ٦ ٨ ٩ ١١ ١٢ ٤٦

دارون ٩٤

داهر ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢ ١٥٣

ديبس (نهر) ١٤٠

دجلة ١٠٩ ١٥٢

دمشق ١٣٤ ١٣٨ ١٥٢ ١٦٨ ١٧٣

١٧٥ غوطة - ١٦٨

دولاب ١٨٢ ١٨٣

الديبل ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩

دير سيمان ١٧٣

رأس التين ١٠٠

راور ١٤٧ ١٥٠ ١٥١

الربذة ١١٤

ربيعة ١٦٨ ١٧١ ١٧٦

الربيع (الوزير) ٢٥

رجاء بن حيوة السكندی ١٦٢ ١٦٣

١٦٤

الردة ٧٨ ١٧٦ ١٨٦

رستم ٨١ ٨٢ ٨٤

الرسول النبي محمد ٣ ٦ ٧ ٩ ١٠ ١١

١٢ ١٦ ١٧ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢

٢٣ ٢٤ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢

٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧

٤٨ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥

|                                       |     |     |     |                              |                 |
|---------------------------------------|-----|-----|-----|------------------------------|-----------------|
| سلي مولاة صفية بنت عبدالمطلب ٣٣       | ١٣٤ | ١٣٣ | ١٣٢ | ١٣١                          | ١٣٠             |
| سليم ( بنو - ) ١٨٢                    | ١٣٩ | ١٣٨ | ١٣٧ | ١٣٦                          | ١٣٥             |
| سليم الثاني ٢٥                        | ١٤٤ | ١٤٣ | ١٤٢ | ١٤١                          | ١٤٠             |
| سليمان ( النبي ) ٦ ١٨٦                |     |     |     | ١٧٩                          | ١٧٧             |
| سليمان بن حبيب المحاربي ١٦٨           |     |     |     | زيد بن أسلم ٧٤               |                 |
| سليمان بن عبد الملك ١٥٠ ١٥٢ ١٥٣       |     |     |     | زيد بن ثابت ١١٠              |                 |
| ١٦٠ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٧٢                   |     |     |     | زيد بن حارثة ٤٠              |                 |
| السمح بن مالك الخولاني ١٦٦            |     |     |     | زينب بنت النبي ٣٢ ٣٤ ٣٦      |                 |
| سمرقند ١٦٨                            |     |     |     | السائب بن يزيد ٧٣            |                 |
| سبية ١٢٧ ١٣٥                          |     |     |     | ساباط ٨٢ ٨٣                  |                 |
| سنان بن وبرة الجهمي ٥٣                |     |     |     | سابور الأول ٨٦               |                 |
| السند ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩             | ٨٧  | ٨٦  | ٨٥  | ساسان ٨٥                     | الساسانيون ٨٥   |
| ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٧١                   | ١٤٠ | ٩٢  | ٩١  | ٩٠                           | ٨٩ ٨٨           |
| سنيار ١٥٢                             |     |     |     | سبأ ٦                        |                 |
| السنة ١٥٧                             |     |     |     | سجاح بنت الحارث التميمية ١٨٦ |                 |
| السنهري ١٢٣                           |     |     |     | سراة (؟) ١١٠                 |                 |
| سهل بن عبد العزيز ١٦٤ ١٧٣             |     |     |     | سراقة بن مالك ٤٧             |                 |
| السودان ١٩٣                           | ٨١  | ٨٠  | ٧٧  | ٧٠                           | سعد بن أبي وقاص |
| السيابجة ١٤٧ ١٥١                      | ١٤٠ | ١٢٨ | ١٢٧ | ٨٤                           | ٨٣ ٨٢           |
| سبيبريا ١٠٧                           |     |     |     | سعد بن عباد ٥٥               |                 |
| سيلان ١٤٧                             | ١٣٥ | ١٢٣ | ١١٠ | سعيد بن المسيب               |                 |
| السيوطي ١٧٢                           |     |     |     | ١٥٨ ١٥٦                      |                 |
| الشام ١٠١، ٧٠، ٧٧، ٨٧، ٩٧، ٨٠، ٨٣، ٨٧ |     |     |     | سفيان بن عينية ٢٠            |                 |
| ٩٥، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢٢، ١٤٨،          | ١٢٢ | ١٢١ | ٦٢  | سقيفة بني ساعدة              |                 |
| ١٥١، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣          |     |     |     | السكاسك ١٥٣                  |                 |
| ١٦٤                                   |     |     |     | سلامة الباهلي ١٨٢            |                 |

|                                     |                                   |
|-------------------------------------|-----------------------------------|
| صاويبا ٨٢                           | شاوور بن مجير السعدي ٥            |
| الصليب الأعظم ٨٦                    | شبيب ١٧٩، ١٨٤                     |
| صنحاء ١١٤                           | شراف ٨٠                           |
| صهيب ٢٤، ٤٩                         | الشريف الرضى ١٧٣                  |
| الصين ١٠٣                           | الشعب ٢٨، ٣٥، ٣٩، ٤٩٠             |
| صهيونية ١٩٣، ١٩٤                    | شعب الحره ١٠٩                     |
| ضمرة ١٦٨                            | الشعبي (عامر) ١٤٣، ١٦٦            |
| الطائف ٢٠، ٢٣، ٤٠، ١٢٧، ١٥٧         | الشعبية ٣٩                        |
| الطبرى ١٨، ١٩، ٢١، ٤١، ٨٠، ٨٢       | شكسبير ١٠١                        |
| ٨٣، ١٢٣، ١٣١، ١٧٢                   | الشهر ستاني ١٢٦                   |
| طرابلس ٩٥                           | شوذب ١٧٠                          |
| طعيمة بن عدى ١٠                     | شيدبة بن ربيعة ١٠                 |
| طلحة بن عبيد الله التيمي ١١٠ و ١٢٩  | الشيخ النجدي ٩، ١٠، ١١            |
| الطلحتان (دار -) ١١٠                | شيناز ٨٦، ١٤٨، ١٤٩                |
| طنجة ١٠٣                            | الشيعة العلويون ٨٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٠ |
| عائشه ٢٧، ٤٤، ٤٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٩،    | ١٦١، ١٧٠، ١٧٣                     |
| ١٨٦                                 | صواب ٢١                           |
| العاقد لدين الله الفاطمي ٥          | صاحب الاغانى ٢٠، ١٢٥، ١٤٦         |
| عامر بن الطفيل ٧                    | صاحب لباب النقول ٢١               |
| عامر بن فهيرة ٢١ و ٥٨               | صالح بن عبد الرحمن ١٥٤            |
| عامر بن لوى ٢٧                      | صالح بن كيسان ١٥٧                 |
| العباس بن عبد المطلب بن هاشم ٣٤،    | الصحابة ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٦    |
| ٧٣، ٧٤                              | ١٢٢، ١٢٣، ١٥٦، ١٥٦، ١٥٦           |
| العباسيون ١٧٣، ١٧٩، ١٩١             | الصفاء ٢٣، ٥٨، ٥٩، ٦٦             |
| عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي ١٦٦ | صفين ١٧٥                          |
| عبد الرحمن بن أبي بكر ١٥ و ٤٩       | صقالية ١٨٧                        |
| عبد الرحمن بن أبي بكرة ١٣٠ و ١٣٣    |                                   |

عبيد الله بن زياد ١٧٨ ١٧٩ ١٨١ ١٨٢

عبيد الله بن الماحوز ١٨٢

عبيد بن هلال ١٧٩

عتبة بن ربيعة ١٠

عتبة بن غزوان ١٢٧

عتيق بن عائذ بن عبد الله بن

مخزوم ٢٨

العتيق ٨١ و ٨٢

المعجم ٨٣ و ١٣٢ و ١٦٨ الأماجم ١٦٠

عثمان بن أبي العاص ١٤٨

عثمان بن عفان ( ذو النورين ) ١٠٥

١٠٦ و ١٠٩ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤

١٢٥ و ١٢٩ و ١٤٠ و ١٨٦

عدى بن أرطاة الفزاري ١٦٦

العذيب ٨٢

العراق ١ و ٧٠ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٧

١١٠ و ١١٧ و ١٢٧ و ١٣٣ و ١٣٩ و

١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٥١ و ١٥٣

و ١٥٩ و ١٧٩ و ١٨٣ السواد ٨١

العرب ٥ و ٧٩ و ٨٣ و ٨٧ و ٩٢ و ٩٤ و

٩٥ و ٩٦ و ١٠٢ و ١٠٨ و ١١٣ و ١٢١

١٣١ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٤١ و ١٤٥ و

١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٣ و ١٥٤ و

١٦٠ و ١٦١ و ١٩٣ هرب البحرين

١٤٧

العرج ٤٧

عرقه ٦٣

عبد الرحمن بن عبد القساري ٧٠

عبد الرحمن بن عوف الزهري ١١٠

عبد الرحمن بن ملجم ١٨١

عبد الرحمن بن نعيم القشيري ١٦٦

عبد القيس ١٤٧

عبد العزى بن قصي ٢٧

عبد الله بن النبي، الطاهر، الطيب ٣٢

عبد الله بن أبي بن ساول الخزرجي ٤٤

٤٥ و ٥٣ و ٥٤

عبد الله بن أبي ربيعة ٢٠

عبد الله بن جحش ٤٩

عبد الله بن جعفر ١٥٦

عبد الله بن الحضرمي ١٣٠ و ١٣١

عبد الله بن عباس ١٣٠ ١٣١ ١٣٢

١٤٠

عبد الله بن عمر ٦٨ ٦٩ ٨٣ ١٣٥

١٥٦ و ١٦٢

عبد الله بن عبد الله بن عتبة ١٦٢

عبد الله بن الزبير ١٤٦

عبد الله بن عتبة بن مسعود ٧٠ و ١٥٦

عبد الله بن عامر ١٢٩ و ١٤٠

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ١٦٤

١٧٣

عبد الملك بن مروان ١٥٧ ١٦٠ ١٦٨

هيب ١٣٤

عبد العزيز ١٥٦ و ١٥٧

|                                 |                                   |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٣     | عروة بن أدية ١٨٢                  |
| ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨     | عروة بن مسعود الثقفي ٢٣           |
| ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٦١     | عسفان ٤٧                          |
| ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٦٩                 | العصور الوسطى ١٥٤                 |
| العمرية ١٠٦                     | عضل (بنو الهون بن مدركة) ١٦       |
| عمر بن أبي ربيعة ١٠١ ، ١٤٦      | عفيف ٣٤                           |
| عمر بن عبد العزيز أشج بن أمية . | العقبه ٤١ ، - الأولى ٤٢ ، ٤٥ ، -  |
| ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩     | الكبرى ٤٥                         |
| ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥     | العقد الفريد ١٦٢                  |
| ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١     | عقيل بن أبي طالب ٤٩               |
| ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤                 | عك ١٥٣                            |
| عمرو بن أدية ١٧٧                | علي بن أبي حملة ١٦٨               |
| عمرو بن أسد (عم خديجة) ٢٨       | علي بن أبي طالب ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٨ |
| عمرو بن الحمق ١٣٤               | ١٠٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٩       |
| عمرو بن خنثر ٢٧                 | ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨             |
| عمرو بن العاص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٩٥ | أبو تراب ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨١    |
| ٩٦ ، ١٢٨                        | عمان ١٤٦ ، ١٤٧                    |
| عمرو بن علقمة ٤٩                | عمار ٢٤                           |
| عمرو بن عوف ٤٧                  | عماس ٨٣                           |
| العواء ٧٤                       | عمران بن حطان ١٨٢                 |
| عياش بن خليفة ٧٦                | عمر بن الخطاب (ابن خنثمة) ٦ ،     |
| عيسى ٣٤ ، ١٧٤                   | ٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧       |
| عيلام ٨٥                        | ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤       |
| عين شمس ٩٥                      | ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠       |
|                                 | ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٦      |

|                             |                                  |
|-----------------------------|----------------------------------|
| الفراعنة ٥                  | الغار ٤٧                         |
| الفردوس ٩٤                  | غزالة ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥                |
| الفرزدق ١٥٨                 | الغسانية ٨٧                      |
| الفرس ٥ ٦٢ ٧٩ ٨٣ ٨٤ ٨٦ ٨٧   | غضى ٨٠                           |
| ٩٥ ١٣١ ١٣٢ ١٤٠ ١٨٦ ١٨٧      | غفار (من كنيته) ١١١ ١١٢ ١١٦      |
| فرنسا ٥٢                    | الغنوى ٥٠                        |
| الفسطاط ، مصر القديمة ٤ ، ٥ | غوية (دى -) ٩٧                   |
| الفقه ١٣٥                   | الغارابي ١٥٥                     |
| فلسطين ٥ ٨٦ ١٩٣ ١٩٤         | فارس ، ايران ٧٧ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٥      |
| فلهاوزن ١٣                  | ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩١ ٩٢ ١١٤               |
| السفء ١١٠ ١١٢ ١١٣ ١٢٢ ١٦٩   | ١٢٨ ١٣٠ ١٣١ ١٣٣ ١٤٠              |
| فينيقية ١٠٢                 | ١٤٦ ١٥١ ١٥٤ ١٧٠ ١٩٣              |
| السادسية ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٩٢  | الفارعة بنت طريف ١٨٤             |
| القاسم بن النبی ٣٢          | فاطمة بنت النبی ٣٢ ٣٣            |
| القاهرة ١٨٨                 | فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنی  |
| قباء ٤٧ ٤٨                  | عامر لوى ٢٧                      |
| قبرس ١١٢ ١٦٨ ١٦٩            | فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ١٥٧ |
| قتيبة بن بنت مسلم ١٤٦ ١٦٨   | ١٦٤                              |
| قتيلة بنت نوفل ٣٨           | فتح الباری ١٧٢                   |
| قديد ٤٧                     | الفتنة السكبرى ١١٦               |
| قديس ٨٢                     | فرك ١٧٠                          |
| قرآن ٦ ٧ ١٢ ٢٣ ٤٦ ٤٧ ٨٧     | فدياس ١٠١                        |
| ١٠٧ ١١١ ١٢٤ ١٢٩ ١٥٧         | الفرات ١٠٩ ١١٩                   |
| ١٥٨ ١٨٦ ١٩٤                 |                                  |

قريش ٦ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٣ ١٤

السكناسة ١١٠ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢١ ٢٢ ٢٤

كنانة ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ٢٧ ٢٨ ٣٥ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠

كنيسة يوحنا ١٦٨ ٤٣ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٩ ٥٣ ٥٥

السكوفة ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ٥٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢

١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ١٢٥ ١٢٨ ١٤٤

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ قسطنطينية ٨٦ ١٧١

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨١ قصي بن كلاب ٨

١٨٣

السيانيون ٨٥ ؛ ٨٩ قطام بنت علقمة ١٨١

السكريج ١٥٠ ١٥٣ قطري بن الفجاءة ١٧٩ ١٨٢ ١٨٣

لجنة التأليف ٩٤ قميقةعان ٥٩

مادى ٨٥ قيس ١٥٣

ماسبرو ٩٦ قيصر ٣٤ ٧٧

المؤلفة قلوبهم ٥٥ قيصر روسيا ١٠٧

مالك بن أبي السمع ١٥٦ كراتشي ١٤٧

ماني ٩٠ كشير ١٤٦

مالك بن أنس ١٨٠ كربلاء ١١٧ ١١٨

ما وراء النهر ١٤٦ ، ١٧١ كerman ١٣١ ١٤٩

المأوردى ٢١ كسرى ٣٤ ٧٧ ١١٤ ١٣١ الأكسرة

متحفون ٢٨ ١٤٠

المتنبى ١٩٠ كسكر ١٥١ ١٥٢

المتوكل ١٧٩ كشف الغممة ١٠٦

المثنى بن حارثه ٧٧ ، ٧٩ كعب بن حامد ١٦٦ ١٦٧

محارب (بنو -) ٦٩ السكينة ، بيت الله ٨ ١٨ ٢٣ ٣٤

محمد بن أبي بكر ١٣٠ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٣ ٦٥ ٦٦

|                                |                                  |
|--------------------------------|----------------------------------|
| المسور بن مخرمة ٧٠             | محمد بن القاسم الثقفي ١٤٥ ، ١٤٦  |
| المسيحية ٨٨ ، النصاري ١٥١ ١٦٨  | ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢      |
| مسييلة ٩٧                      | ١٥٣ ، ١٥٤                        |
| المشرق ١٣٣                     | محمد فريد أبو حديد ٩٣ ٩٤         |
| مصر ١ ٦٤ ٧٠ ٧٧ ٧٩ ٨٦ ٩٣        | محمد بن معبد ، ١٧٤               |
| ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١٠٢ ١٠٣            | المدائن ٨٦ ، ٨٧                  |
| ١٠٦ ١٠٩ ١٣٠ ١٥٦ ١٦٧            | المدائن ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢          |
| ١٨٧ ١٨٨ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢            | المدينة ، يثرب ، ١ ، ٩ ، ٢٠      |
| مصعب بن عمير ٢٤ ٤١             | ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥      |
| مصيصة ١٥٢                      | ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣      |
| مضر ٢٧ ١٧١                     | ٥٤ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ١١٠       |
| المطعم بن عدي ٤١               | ١١١ ١١٦ ١٢١ ١٢٨ ١٥٦              |
| المظالم ١٦٦                    | ١٥٨ ١٥٩ ١٦٢ ١٦٦ ١٧٦              |
| معاوية بن أبي سفيان ١٢ ٢٥ ٧٠   | مراد الثالث ٢٥                   |
| ١١٢ ١١٣ ١٣٠ ١٣٢ ١٣٤            | مرداس بن أدية ١٧٨ ١٨١ ١٨٢        |
| ١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠            | المروة ٢٣ ٥٨ ٥٩ ٦٦               |
| ١٤٦ ١٧٥ ١٨٦                    | مروان بن الحكم ١٥٦               |
| معبد ١٥٦                       | مريم ( — بنت عمران ) ٣٦ ١٢٥      |
| المعتضد ١٢                     | مريم الخارجية ١٨٤                |
| المعز لدين الله ١٨٧            | مزاخم مولى عمر بن عبد العزيز ١٥٩ |
| معقل ( نهر ) ١٤٠               | ١٦٤ ١٦٥ ١٧٣                      |
| المغرب ١٤٦                     | مزدك ٩٠ ٩١ ١١٤                   |
| المغيرة بن سعيد العجلي ١٢٦     | المسجد النبوي ١٥٨                |
| المغيرة بن شعبة ٨٠ ١٢٨ ١٣٣ ١٣٤ | المسعودي ١١٠                     |
| ١٣٨ ١٤٣ ١٧٩                    | مسلم بن عبد الملك ١٧١            |
| المغيرة ( شيعة غلاة ) ١٢٦      |                                  |

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| المقداد ١١٠                 | الميلاد ١٤٨                |
| المقوقس ٩٥ ٩٦               | ميسرة غلام خديجة ٣٠        |
| مكتبة الاسكندرية ٩٥ ٩٦      | ميشيل أبجاء ١٠١            |
| مكران ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩           | نائلة بنت الفرافصة ١٠٧ ١٨٦ |
| مسكة ١ ٨ ١٣ ١٥ ١٧ ١٨ ١٩     | النايغ ١٠                  |
| ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦        | نابليون ٥٢                 |
| ٢٧ ٣٠ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٣        | نافع بن الأزرق ١٧٩ ١٨٢     |
| ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١        | نای ٥٢                     |
| ٥٨ ٦٠ ١١١ ١٥٧ ١٥٩ ١٧٦       | نبيه بن الحجاج المخزومي ١٠ |
| مكحول الشامى ١٦٤            | النجاشى ٣٩                 |
| الملل والنحل ١٢٦            | نجد ٩ ، ٤٧                 |
| الملتان ١٤٧ ١٥٠             | نجدة ١٧٩                   |
| المنافقون ٥٣                | نجرانية السكوفة ١٦٧        |
| منبه بن الحجاج المخزومي ١٠  | النجف الأشرف ١١٧ ، ١١٨ ،   |
| المنصور ٢٥                  | ١١٩                        |
| المهاجرون ٣٩ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٣ | النساطرة ٨٨                |
| ٥٤ ١٢١                      | النضر بن الحارث ١٠         |
| المهدي ٢٥ ١٢٥               | النظام الثلاثي ١٢٢         |
| مهران ١٥٠                   | نفيسة بنت منبه ٣١          |
| المهرجان ١٦٧                | النمر ٧٠                   |
| المهلب بن أبي صفرة ١٧٩      | النميرى ١٤٦                |
| مهمل ٨                      | نماوند ٩٢                  |
| موبدان ( موازنة ) ٩٠        | نهبج البردة ١٠٦            |
| موسى ٣٤ ١٢٣ ١٢٤             | النهروان ١٧٩               |
| موسى بن نصير ١٤٦            | النووى ٨٨                  |

|                                 |                                    |
|---------------------------------|------------------------------------|
| الوليد بن طريف ١٧٩ ، ١٨٤ ،      | النيروز ١٦٧                        |
| ١٨٥                             | النيل ١٠٩                          |
| الوليد بن عبد الملك ١٥٠ ١٥٣ ١٥٧ | لامانس ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٢    |
| ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦٥                 | ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦              |
| الوليد بن المغيرة المخزومي ٢٣   | هبيره بن وهب المخزومي ١٦           |
| وليريان ٨٧                      | الهجرة ٣ ، ٩ ، ٥٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٩   |
| الياقوت ( جزيرة ) ١٤٧ ١٤٨       | ١١٢ ، ٥١                           |
| يربوع ١٤٨                       | هرقل ٩٥                            |
| يحيى بن سعيد ١٧٣                | الهير ٨٣                           |
| يزدجرد ٨٢ ٨٣ ٩٢                 | هشام بن اسماعيل المخزومي ١٥٧       |
| يزيد بن أبي كبشة السكسكي ١٥٣    | الهند ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٣  |
| يزيد بن أبي مالك الدمشقي ١٧٢    | ١٩٤                                |
| يزيد بن أبي مسلم ١٨٤            | الهون بن خزيمه بن مدركة ١٥         |
| يزيد بن عبد الملك ١٦٠ ١٦٤ ١٦٥   | هوازن ٥٥ ، ٨٠                      |
| ١٧٠                             | هولنده . ١٩٤                       |
| يزيد بن مزيد الشيباني ١٨٤ ١٨٥   | الهياطله ٨٧                        |
| يزيد بن المهلب ١٥٣              | واترلو ٥٢                          |
| اليعاقبة ٩٧                     | واسط ١٥١ ١٥٤                       |
| يعلى بن معاويه ١١٠              | وادي الحقيق ٤٧                     |
| اليمامة ٩٧                      | الواقدي ٣٣ ، ٧٣                    |
| اليمين ٧ ١١٤ ١٥٣ ١٦٧ ١٧١ ١٨٦    | وثينة ٢٨ ، ١٥١ ، ٨٨ أصحاب أوثران ، |
| اليهود ٢٠ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٦٢ ١٥١    | أهل شرك ٤٢                         |
| اليهودية ٤٢                     | وحشى ( قاتل حمزة ) ٢١              |
| يوحنا النقيوسي ٩٦ ١٦٨           | ورقة بن نوفل ٢٨ ، ٣٤               |
| يوليوس قيصر ١٠٧                 | الولجة ٨١                          |
| يوم الدار ١٠٥                   |                                    |
| اليونان ، الاغريق ١٠١ ١٠٢ ١٨٩   |                                    |

## فهرست الصور

|     |                                                                                                                        |
|-----|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٥   | زخرفة على الخشب بجامع عمرو بن العاص                                                                                    |
| ١٢  | زخرفة على الحجر بإحدى منارتى جامع الحاكم بأمر الله                                                                     |
| ٥١  | مسجد قباء ( بالمدينة المنورة )                                                                                         |
| ٦٣  | جنة البقيع ( بالمدينة المنورة )                                                                                        |
| ٦٦  | فسيفساء من المسجد الأموى بدمشق                                                                                         |
| ٧٦  | صورة خيالية تمثل دخول الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس                                                                 |
| ٨٤  | آية قرآنية بالخط الكوفي من مسجد الحاكم بأمر الله ( من صورة الفتح ... ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا .... ) |
| ٩٢  | تاج عمود بجامع ابن طولون                                                                                               |
| ٩٨  | صورة تمثل فرسانا من العرب                                                                                              |
| ١٠٤ | زخرفة عربية ( أربسك )                                                                                                  |
| ١١٦ | أحد نوافذ جامع ابن طولون                                                                                               |
| ١٢٠ | فسيفساء بقصر هشام بخربة البهجر بفلسطين                                                                                 |
| ١٤٤ | أحد مداخل جامع ابن طولون                                                                                               |
| ١٦٣ | جنة المعلى ( بالمدينة المنورة )                                                                                        |
| ١٧٤ | فسيفساء بالمسجد الأموى بدمشق                                                                                           |
| ١٨٧ | كتابة كوفية وزخرفة بالجامع الأزهر من عصر بنائه                                                                         |

## فهرست الموضوعات

|     |                                                         |
|-----|---------------------------------------------------------|
| ١   | الإهداء                                                 |
| ب   | كلمة الجمعية التاريخية                                  |
| ١   | دروس من الصحراء                                         |
| ٤   | « مصر القديمة » وآثارها                                 |
| ٦   | دار الندوة                                              |
| ١٣  | أحايش قریش « هل كانوا عربا أو حبشا »                    |
| ٢٢  | دار الأرقم المخزومی                                     |
| ٢٦  | أم المؤمنین خديجة بنت خويلد                             |
| ٢٧  | الهجرة                                                  |
| ٥٢  | كيف كان الرسول يسوس أصحابه                              |
| ٥٧  | من ذكريات الحج                                          |
| ٦٤  | رسالة الحج                                              |
| ٦٧  | عمر بن الخطاب في عام الرمادة (١)                        |
| ٧٢  | عمر بن الخطاب في عام الرمادة (٢)                        |
| ٧٧  | عمر الفاتح ( الروح الذي وجه المسلمين إلى النصر الباهر ) |
| ٨٥  | دولة الأكاسرة ٢٢٦ - ٦٥١ م                               |
| ٩٣  | فتح العرب لمصر ، تأليف بتلر وتعريب محمد فريد أبو جديد   |
| ٩٩  | على ساحل بحر الروم                                      |
| ١٠٥ | شعراؤنا وسيدنا عثمان                                    |
| ١٠٨ | أبو ذر الغفاري                                          |
| ١١٧ | العتبات المقدسة                                         |
| ١٢١ | الأب لامانس والحكومة الإسلامية الأولى                   |

|     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| ١٢٧ | زياد بن أبي سفيان (١)             |
| ١٣٦ | زياد بن أبي سفيان (٢)             |
| ١٤٥ | محمد بن القاسم الثقفي             |
| ١٥٥ | عمر بن عبد العزيز ٦٢ - ١٠١ هـ (١) |
| ١٦٤ | عمر بن عبد العزيز (٢)             |
| ١٧٥ | نساء الخوارج                      |
| ١٨٨ | الأدب العربي المصري (١)           |
| ١٩٠ | الأدب العربي المصري (٢)           |
| ١٩٣ | البعث . . . .                     |
| ١٩٦ | كشفاف                             |
| ٢١٤ | فهرست الصور                       |
| ٢١٥ | فهرست الموضوعات                   |

## تصويب

---

| ص   | س       | خطأ      | صواب     |
|-----|---------|----------|----------|
| ١٠٧ | ٣       | أبو      | أبوا     |
| ١١٤ | ١٣      | المسمين  | المسلمين |
| ١١٥ | ١٣      | ووضهوا   | ووضهوا   |
| ١١٧ | آخر سطر | وأودعتها | واودعتها |
| ١١٨ | ١١      | قاستأذنا | فاستأذنا |
| ١١٩ | ٦، ٤    | ذى       | ذا       |
| ١١٩ | ٨       | عرى      | غرى      |
| ١٣٢ | ٢       | ذهنة     | ذهنه     |
| ١٥٢ | ١٥      | سنا      | سنمار    |